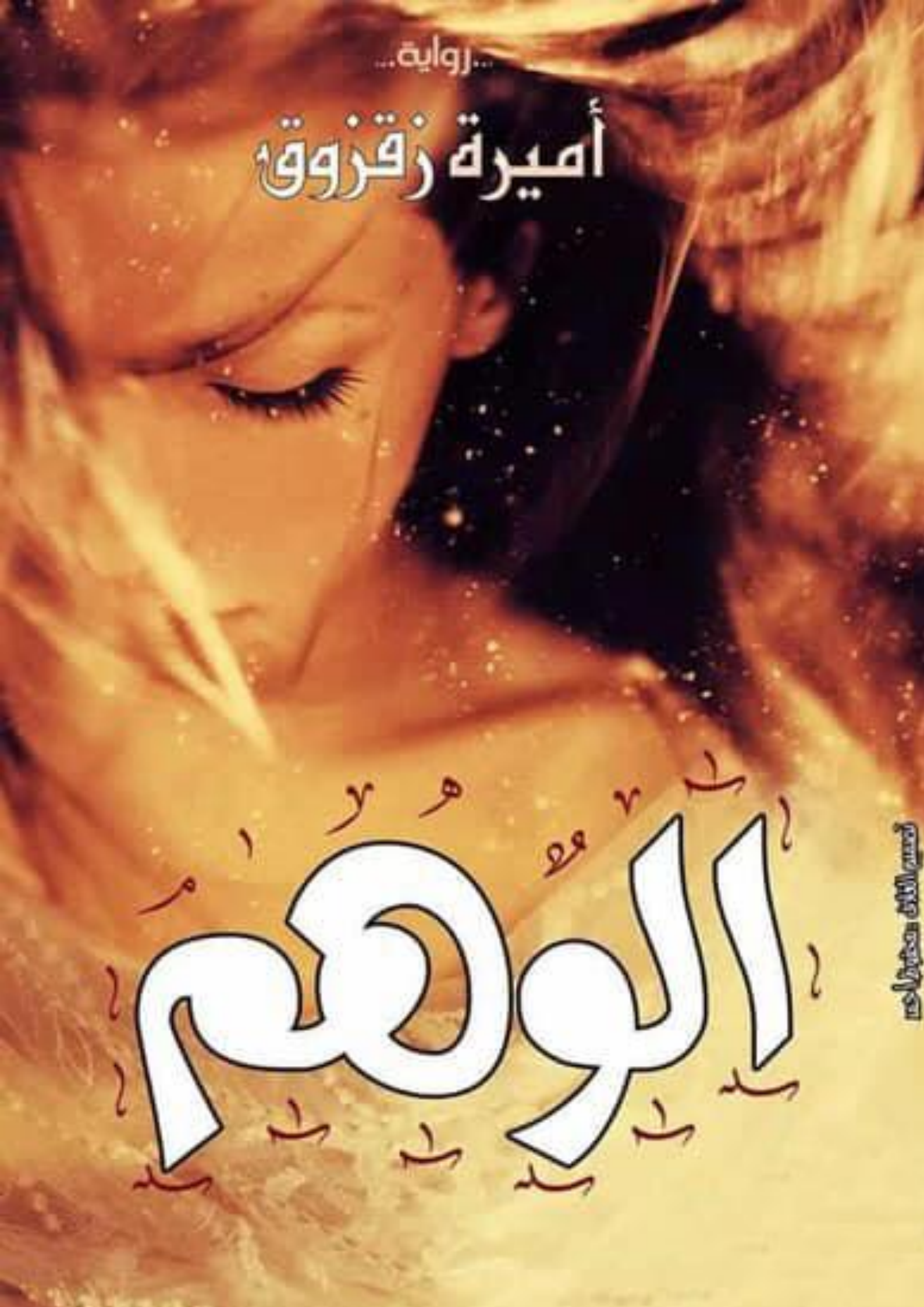

...رواية...
أميرة زقزوق
الوهم

الــــــــوهـــــــم

التصـــــنيـــــــف : روايـــــة

المـــــــــؤلف : أميره زقزوف

تصميم الغـــلاف : محفوظ أحمد

التدقيق الإملائي : مريم عمرو

الإخـــــراج الفني :

موقع أسرار الروايات للنشر الإلكتروني

ملخص

تتوالى الصدمات والحزن يتفاقم، أتلفت حولي باحثة عن يد العون فلا أجد سوى أقرب الأقربين بات عدوًا لي وقت حاجتي، أركض هاربة من مصير أسود احتّل أيامي، فأجد قدماي مكبلتين بأصفاد العجز والحنين

تفر دموعي هاربة من مقلتاي، ويئن قلبي وجعًا لما ألّم بي من ضعف كنتيجة للخذلان، أأجد من يواسيني ومن عتمة الفقد يُحيني؟ أم أن العالم أجمع أصبح على درجة واحدة من الخسة!!

الفصل الاول

يتمدد جسدي فوق ذلك الفراش الأبيض، منهكة القوى عاجزة عن تحريك ذرة واحدة بجسدي، أحاول جاهدة استدعاء حواسي التي أظن أنها خارت للأبد، جفناي ثقيلان، أظن أنني أحتاج لأضعاف قوتي؛ لإبعادهما عن بعضهما، يد ما تلامس يداي، أشعر بدفئهما، صوت بكاء حاد بجواري.

كلمات حزن يتم تلاوتها على مسامعي، تختلف الكلمات، ونبرة الحزن واحدة، مرارة تلك الدموع التي تنساب على وجنَتَيَّ تزيد نيران صدري اشتعالًا، تختلط نبرات الأصوات حولي ويبقى ذلك الصوت الباكي مميزًا لي، بالرغم من ذلك الضيق الذي يجتاحني إلا أنني وبشكل ما أشعر بالأمان عند سماعي إليه...

رعشة خفيفة تسري بأوصالي، برودة شديدة تنتشي بأطرافي، ألمًا حادًا يكاد يفتك برأسي، يزول ذلك الثقل من مقلتاي تدريجيًا، لتنفتحا ببطء ويزيد وجع جسدي ويتفاقم.

أنظر حولي أستكشف ذلك المكان الذي أقبع فيه، لأجد أنني فوق سرير بغرفة داخل مشفى، يتصل جسدي بعديد من الأجهزة الطبية التي تصدر صوتًا رتيبًا ليشير إلى أنني ما زلت على قيد الحياة، وإلى جوار سريري يقف الطبيب وممرضته الحسناء لتتابع حالتي، يقترب مني ليطمئن على حالتي

ويسألني إن كنت أسمعه أم لا، فأحرك له رأسي إيماءً، وبعد محاولات عدة مع حنجرتي أخرج صوتًا بالكاد يسمعه لأخبره أنني أشعر بألم في جميع أنحاء جسدي.

ليجيب بلا مبالاة وهو يتابع فحصه:

- لا عليكِ ستصبحين بخير عما قريب، فلا داعي للقلق، وحمدًا لله على سلامتك.

قال جملته مبتسمًا، ثم خرج من الغرفة تتبعه الممرضة، ليتركاني وحيدة مع ذلك الألم العنيف الذي يغزو رأسي، ولكن مهلًا....أين ذلك الصوت الحزين الباكي الذي لطالما سمعته؟! أين هو صاحب الدموع المريرة؟! لمَ أصبحت وحيدة الآن؟! وما الذي أتى بي إلى المشفى من الأساس؟

لمَ لا أتذكر شيئًا! عشرات الأسئلة تندفع في رأسي، لتزيده وجعًا فوق وجعه.

يُطرق الباب طرقات خفيفة قبل أن يُفتح، ويظهر خلفه رجل في عقده الرابع، يظهر الوقار على ملامحه وتلك الخصلات البيضاء التي تتناثر بعشوائية في شعره، قال وعلى محياه ابتسامة مريحة:

- هل لي بالدخول؟

لم أستطع أن أتذكره، أو أتذكر إن كنت أعرفه أم لا، إلا أنني وبشكل ما كنت على يقين بأنه يعرفني حق المعرفة، وهو من سيساعدني على الخروج من وحل الأسئلة في رأسي، بابتسامة باهتة، وبصوتٍ هامسٍ قلت:

- بالطبع تفضل.

اقترب في وقار، وجلس على كرسي بجواري، وقال:

- حمدًا لله على سلامتك، كيف حالك الآن؟

قلت متوجسة:

- أنا بخير، ولكن هل تعرفني؟

- نعم أعرفك جيدًا، ولكنك لا تعرفيني سأقدم نفسي إليكِ:

أنا (مصطفى) ناصر) محامي من طرف (إيهاب) ابن عمك، طلب مني أن أترافع عن والدك في قضيته.

قلت وقد بدأ الألم يتفاقم في رأسي، وصورة والدي و(إيهاب) معًا تتجسد أمام ناظري:

- أي قضية؟!

بدا عليه التوتر وهو يجيب:

- قضية المخدرات التي اتهم فيها والدك أنه تاجر مخدرات والضابط الذي كان يعمل على تلك القضية هو....

صمت قليلًا ثم سحب نفسًا عميقًا قبل أن يُكمل:

- (إيهاب) ابن عمك.

شعرت أن رأسي قد قسمته الذكريات إلى شقين، صورًا كثيرة تمر أمام ناظري لتنتهي بموت أبي إثر أزمة قلبية، بعد أن حُكِمَ عليه بالسجن، يتجلى وجهه وهو ملقى على فراش الموت أمامي، لأشعر أن أنفاسي تهرب

من رئتي وضيقًا يجثم فوق صدري، ودموع هاربة من مُقْلَتَيَّ، وتشنج في أطرافي، ولا أدري كم مر وقت من الزمن على تلك الحالة الغريبة؟ ولا أذكر ما الذي حدث، ما أذكره حقًا هو وجه الممرضة وهيَ تدس بذراعي محلولًا ما غيبني تمامًا عن الوعي!

***

ما هيَ إلا أيام حتى استَعَدتُ عافيتي، وخف الألم تمامًا من جسدي، إلا أن روحي لا تزال مجروحة بجرح عميق، لا أظن أنه سيداوَى في يومٍ من الأيام!

طُرِقَ الباب ليظهر من خلفه (مصطفى) المحامي ذلك الرجل الوحيد الذي ظل بجواري يساندني ويدفع بداخلي القوة لمواجهة ما أمر به دفعًا، ليقول بابتسامته المريحة:

- هل أنتِ مستعدة للرحيل؟

أومأت له برأسي وابتسامة بلهاء ترتسم على شفتاي، ليقول وهو يحمل الحقيبة التي أعددتُها مسبقًا:

- هيا بنا إذًا لنرحل.

أمسك بيدي كطفلة صغيرة يخشى أن تضيع منه ومررنا معًا بممرات المشفى؛ لنصل إلى البوابة الرئيسية.

توجهنا إلى حيث تقف سيارته، دلفت بجواره، وجلس هو في مقعد القيادة، ثم نظر لي وقال باهتمام:

- هل أنتِ واثقة من موافقتكِ على ذهابكِ لبيت عمكِ في القاهرة؟

ابتسمتُ لا إراديًا وأنا أرى حنان أبي في عينيه، وأعلم جيدًا سر خوفه من ذهابي للسكن في بيت عمي (إبراهيم) عيسى)، فهو يخشى على من وجع الخذلان، فقلت وأنا أهز رأسي مؤيدة:

- نعم أثق تمام الثقة.

ربت بيده فوق يدي، وقال مشجعًا:

- فلتكوني قوية إذًا.

ابتسمت رغم الألم الذي يموج في صدري ونظرت إلى الأمام، وشرع هو في القيادة متجهًا إلى القاهرة، التي كنت أظن أنني سأذهب إليها في يوم من الأيام متأبطة ذراع (إيهاب) كزوجة له، (إيهاب) ابن عمي وعشق حياتي، ونصفي الأخر بل كُلِّي، لقد كان نَفَسِي الذي أتنفسه، كان وما زال قلبي ينبض بحبه، كنت أحيا به ولأجله ومعه، مجرد نظرة من عينيه تبث بروحي الحياة، وابتسامة صادقة فوق شفتيه تقذف بي عاليًا في سماء السعادة، (إيهاب (إبراهيم) عيسى) الضابط المجتهد في عمله، كم أحب فيه كل ما فيه!

وأشد ما أحبه فيه هو وظيفته، فلولا انتقاله للعمل في الإسكندرية ما كان ليأتي لزيارتنا، وأقع أنا في شباك غرامه، فبالرغم من كوننا أبناء أعمام إلا أننا لم نرَ بعضنا إلافي شبابنا، كما أنني لم أحظ برؤية عمي وزوجته و(سعاد) ابنته إلافي الصور التي كان يريني إياها (إيهاب)، كنت

دائمًا ما أتعجب...كيف لعلاقة صلة الدم أن تكون بتلك الشاكلة من الإهمال وعدم الاهتمام؟، أي زمن هذا الذي يجعل من الأخ لا يتواصل مع أخيه إلا بالهاتف كل عام مرة أو مرتين على الأكثر؟، كنت دائمًا أقول لـ(إيهاب) " تخيل لو كانت العلاقة بين أبوينا جيدة، ورأينا بعضنا من طفولتنا قطعًا لكنا قضينًا معًا مرحلة حب الطفولة " ليضحك ملئ شدقيه، وتظهر تلك الخطوط بجوار عينيه التي تزيد من وسامته وتزيد من مكانته في قلبي.

كان أبي سعيد بعلاقتنا، ودائمًا ما كان يخبرني بأنه لن يجد لي زوجًا مثل (إيهاب)، كان ينظر له بعين الرضا، ويعامله كما لو كان ابنه هو، وليس ابن اخيه، كانت العلاقة بينهما جيدة لأبعد الحدود، كانا يقضيان معًا الكثير من الوقت في غرفة المكتب الخاصة بأبي، ودائمًا ما كنت أقول لأبي مازحة:

- "ماذا بك يا أستاذ (محمد)، أتُخَطط لسرقت (إيهاب) مني أم ماذا؟"

ليحيطني بحنان ويجيب ضاحكًا:

- "لا يمكن لأحد مهما كان يا صغيرتي أن يسرقه منكِ أبدًا، أدام الله سعادتكما."

***

- (ملك)!!

أفاقني صوت (مصطفى) المحامي من سيل الذكريات، نظرت إليه لتبدو صورته غير واضحة الملامح من وراء تلك السحابة من الدموع التي تكونت بين جفنيَّ، ليسألني في خوف اتضح من نبرة صوته:

- هل أنتِ بخير؟

قلت وأنا أمسح تلك الدمعة التي هربت من عيني:

- نعم بخير لا تقلق، إنها فقط بعضًا من الذكريات.

قال محفزًا:

- اتفقنا أن تكوني قوية.

قلت مشاكسة:

- لا أظن أن هناك فتاة في مثل قوتي.

ضحك من قلبه حتى دمعت عيناه، وقال:

- تقولينها بمزاح، لكني أرى أن هذا حقيقي. .

صمت قليلًا وقد اختفت آثار ابتسامته، ثم أردف:

- فتاة فقدت والدها وخسرت حبيبها ولديها الشجاعة لتكمل حياتها بمفردها وفي بلد غير بلدها، فهيَ حقًا قوية، فتاة تقبل بأن تعيش مع حبيبها الذي انفصلت عنه في منزل واحد، ويكون أمام عينيها، فهيَ حتمًا قوية.

أنا على يقين بأنه قال كلماته ليزيد من حماسي ويقوي أزري مثلما يفعل دائمًا، إلا أنه هذه المرة لم يكن يعلم أنه بكلماته تلك أتى بخنجر من

الألم وطعنه في قلبي لينزف وجعًا، هو لم يقلها صراحة، ولم يشر بها في كلامه، إلا أن ملامحه وتعبيرات وجهه صرخت قائلة:

- كيف لكِ العيش مع من قتل أباكِ؟ كيف لكِ أن تكملي حياتك بعدما علمتِ أن والدكِ كان من أكبر تجار المخدرات؟

أفاقني مرة أخرى من شرودي وهو يسألني:

- ما رأيكِ بأن نستريح قليلًا ونأكل بعضًا من الطعام؟

أومأت برأسي في استسلام ليقف بالسيارة أمام مطعم قابلناه في طريقنا، دلفنا سويًا وجلسنا معًا على إحدى الطاولات النائية، وطلب أنواعًا معينة من الطعام أدركت حينها أنها لم تكن المرة الأولى له التي يأتي فيها إلى هنا، مرت ثواني ثقيلة خيَّم فيها الصمت الممل تاركًا المجال لذكرياتي الموجعة العبث برأسي، فقطع هو الصمت وسد الطريق أمام الذكريات قائلًا:

- كيف ستتعاملين مع (إيهاب)؟

أشحت برأسي بعيدًا عنه وكأنني أخشى أن يصيب سؤاله وجهي فيدميه مثلما شعرت به يعصر قلبي ألمًا، وقلت في غضب:

- من قال أني سأتعامل معه؟ أنا ذاهبة لمنزل عمي ((إبراهيم) عيسى)، وليس منزل (إيهاب).

شحذ نفسًا عميقًا قبل أن يبدأ حديثه قائلًا:

- أنا أتفهم غضبك منه، وأستطيع أن أشعر بما يجتاحك من مشاعر حزن وألم لفقدان والدك، ولكن (إيهاب) لا شأن له بهذا، والدك كُتِبَ له الموت في هذا الوقت، ولا يوجد....

قاطعته صارخة:

- والدي كُتِبَ له الموت في هذا الوقت، وكان (إيهاب) أحد أسباب موته، بل هو سبب موته الرئيسي.

أنهيت جملتي وأخذ صدري يعلو ويهبط في جنون، وشعرت بأنفاسي تسابق الزمن، لأجده يهدأ من روعي، ويناولني كوبًا من الماء قائلًا في حنان:

- اهدئي فقط، لا يوجد داعي لغضبك الآن، أرجوكِ اصغي إليَّ فقط، وحاولي تَفَهُّم كلماتي، ولا تقاطعيني إذا سمحتي.

تناولت كوب الماء دفعة واحدة، شعرت وكأنني لم أرتوِ منذ أشهر، وبدأت أنفاسي في الانتظام وقلت له:

- أسمعك، تفضل.

أخذ ينظر إليَّ بتمعن وكأنه يريد أن يسبر أغواري، ثم شرع في الحديث:

- (ملك) قبل أن أبدأ في قول أي شيء، هل تعلمين أن (إيهاب) هو من طلب مني أن أتكفل لوالدك بإجراءات القضية لوالدك؟

قلت مقتضبة:

- نعم، لقد أخبرتني بهذا من قبل.

- حسنًا، أود أن أخبرك إذًا أن والدك في الحقيقة كان تاجر مخدرات بالفعل و.....

- أخبرني شيئًا لا أعرفه، لقد علمت بهذا الشيء من قبل، أخبرني (إيهاب) بهذا، وإلى الآن لا أستطيع التعايش معه.

- اهدئي أرجوكِ ولا تقاطعيني مجددًا، هذا طلبي الوحيد.

- حسنًا تفضل.

- (ملك) أنتِ تعلمين جيدًا أن (إيهاب) لم يخطئ في شيء مما فعله، بل بالعكس لقد قام بدوره الصحيح، لا تنسي أو تتناسي أنه ضابط شرطة، وهذه مهمته فلو تغاضى كل ضابط شرطة عن قريبه لما تم القبض على أكثر من نصف المجرمين.

أخبريني...كيف سينظر إليكِ ويتعامل معكِ وهو يعرف بأمر والدك؟ أو أخبريني كيف سينظر إلى نفسه؟ بالطبع كان سيشعر بالاحتقار حيال شخصه، أرجوكِ حاولي أن تتفهمي أن ما قام به ليس إلا الصواب، أنتِ شخصك بالطبع كنتِ ستقللين من مكانته بداخلك لو لم يقم بالإبلاغ عن والدك، وما كنتِ ستستطيعين التعامل مع والدك وكأن شيئًا لم يحدث.

سحب نفسًا عميقًا ثم أردف:

- أرجوكِ ضعي نفسك مكان (إيهاب) وفكري بمنطقه، بمنطق الضابط المخلص لعمله، بالطبع ستجدينه محق في كل ما قام به، أتمني حقًا إلا تكرهيه فهو يحبك إلى أبعد درجة.

أنهي كلامه، وانتهت معه ما تبقى من قوتي المزعومة، أجهشتُ في البكاء وقلت من بين دموعي:

- كيف لي أن أكرهه؟، أتمني ذلك حقًا ، ولكني أحبه حتى النخاع، حبه يملأ قلبي، بل يملأ كياني ووجداني، لا أنكر أنني غاضبة من كونه من قام بكشف أبي وكان سببًا في موته، إلا أنني لم ولن أكرهه، كيف لأحد أن يكره روحه؟، من في العالم قادر على كُره كل ما هو جميل بحياته؟!، أتدري؟ لولا وجوده ما قدرت على العيش لحظة من بعد وفاة أبي، هو الشيء الوحيد الجميل الذي أحيا وسأحيا لأجله، هو السبب الرئيسي الذي منعني من الانهيار عندما علمت أن جميع ممتلكات أبي قد تم التحفظ عليها، فأنت حينما أخبرتني أنه يدعوني للعيش معهم في المنزل، لم تدرِ أنك تعيدني إلى روحي، وتعيد إليَّ روحي، ما يؤلمني حقًا هو بعده عنى، لمَ أرسلك أنت إليَّ في المشفى ولم يأتِ هو؟ من المفترض أن يكون هو الشخص الوحيد بجواري في هذا الوقت، لِمَ لم يأتِ؟ أرجوك أخبرني، هل يكره رؤيتي؟ هل يكره كوني ابنة تاجر مخدرات؟

ألقيت سؤالي، وأخذت أنظر إليه وأنا أحاول التحكم في أنفاسي المضطربة، وأزيل آثار البكاء من على وجهي، ليقول في حلم:

- لِمَ لا تقولين أنه يكره مواجهتك؟! لِمَ لا تقولين أنه يتألم لأجلك ويعلم تمامًا أنه شارك في ألمك هذا؟

اسمعيني جيدًا وحاولي أن تفهمي كلامي إن (إيهاب) يتألم مثلكِ تمامًا بل أكثر ألمًا، لقد وُضِعَ بين شِقيّ الرحى، يكسب مهنته ويخسرك أو يكسبكِ ويخسر ذاته، لذا فأنا أرجوكِ إلا تفسدي كل جميل بينكما، هذا الكم الهائل من الحب كفيل بأن يشفع له عندكِ، فأرجوكِ عديني بأنكِ ستعاملينه بقلبك المُحب هذا، وليس بنفسك الغاضبة.

وكأنني كنت أنتظر من يطلب مني هذا، فأومأت برأسي وعلى شفتاي ترتسم ابتسامة عريضة وقلت:

- أعدك.

تنهد براحة، وأشار للطعام أمامنا الذي لم أشعر بالنادل وهو يضعه وتفاجأت بوجوده، ثم قال:

- هيا تناولي الطعام إذًا؛ لأخبركِ عن المزرعة

قلت متعجبة:

- أي مزرعة؟!

- مزرعة عمك (إبراهيم) التي ستعيشين بها

- أليس منزلًا؟

- لا، هم الآن يسكنون بمزرعتهم لظروف ما بالعمل الخاص بعمك.

أخبرني كل شيء حيال المزرعة أثناء تناولنا للطعام، وعلمت منه أن عمي قد اشترك مع أحد أصدقائه في بنائها، وهم الآن يسكنون بها بجوار شريكه، وأخبرني كيف تسير الأمور بها، فعلى كل حال أظن أن كل تلك الأمور لا تهمني، فما يهمني حقًا هو كوني بجوار (إيهاب).

الفصل الثاني

كانت ليلة ممطرة كئيبة، يصرخ فيها الرعد يعلن احتجاجه وعصيانه، وتعول الرياح الهوجاء لتهاجم كل من تقابله في تذمر شديد وكأن الطقس كان يود لو يمنعني من الخروج والذهاب لمقابلة (إيهاب) بعدما اتصل بي وبدا صوته مضطربًا وهو يطلب مني لقائله، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر ليلًا وتعجبت لأمره حينما أصر على ذهابي إليه، أيقنت حينها أن أمرًا جللا قد حدث، ارتديت ملابسي على عجالة من أمري، وبلا مبالاة رفعت شعري لأعلى دون حتى أن أمشطه، وأكاد أجزم أنني كدت أنسى حذائي لولا صوت الرعد وهو يصرخ مذكرًا إيَّايَ به، لم أشعر بنفسي إلا وأنا على بعد خطوات منه في مكاننا المعتاد على شاطئ البحر على الرغم من المطر الغزير فوق رؤوسنا، إلا أن أنا و(إيهاب) نعشق البحر عشقًا أزليًا، وزاد قلقي وخوفي عندما دنوت منه لأجده يسحبني إلى صدره، ويطوقني بذراعيه القويتين وكأن أحدًا ما سيأخذني عنوة منه، لا أدري لمَ ظللت حينها دون أدنى محاوله لتحرير نفسي من قبضته، أو.....

ربما لم أرد ذلك حقًا، فدقات قلبه المنتظمة كانت وكأنها عزفًا لسيمفونية رائعة لا أريد الانتهاء من سماعها، ويده الحانية التي كانت تمر على شعري بعثت بداخلي دفئًا غريبًا لم أشعر بمثله إلا وأنا معه، مرت دقائق قبل أن يمسك بوجهي بين كفيه ونظرة قلق ممزوجة بالخوف تطل من عينيه

لم ولن أستطيع نسيانها، فتلك كانت المرة الوحيدة التي أري فيها (إيهاب) بهذا الضعف وقلة الحيلة، لأسئله في وجل وترقب:

- ماذا هناك؟ هل أصابك مكروه؟

قال وعيناه تسبح في عينايَ وكأنه يريد أن يخترقهما:

- أنتِ تعلمين جيدًا أنني أحبك أليس كذلك؟

لم يكن الوقت ولا الزمان ولا حتى حالة الجو ملائمة لمثل هذا السؤال الذي أرى أن مجرد طرحه في أيما وقت يقلل من قيمة الحب، فالحب ليس بالكلمات ولا بالعبارات

الحب شيئًا مقدسًا له مكانته الخاصة، لم أستطع أن أتمالك أعصابي وأنا أزيل كفاه من على وجهي وأصرخ قائلة:

- هل جئت بي في هذه الساعة لتسألني هذا السؤال؟

لا أعلم لمَ شعرت للحظة أنني قد رأيت طيف دمعة تخرج من إحدى عينيه، ولكني تراجعت عن ظني هذا حينما رأيت حبات المطر تكسو وجهه بأكمله، قال وهو يعتصر يدي بيده:

- لا، لم آتي بكِ لأسألك هذا السؤال، ولكن لمَ لا تريحيني وتخبريني بإجابته؟

شعرت بانكسار في صوته تبعه انكسار في روحي، قلت وأنا الأمس وجهه بكفي:

- نعم يا (إيهاب) أعرف جيدًا أنك تحبني وواثقة من ذلك تمام الثقة، ولكن لمَ هذا السؤال؟ أخبرني ماذا حدث؟

سيطر التوتر أكثر على ملامحه، وشعرت بأنفاسه تتهدج وأخذت عيناه تتحركان في كافة الاتجاهات، ولم تكن مثبتة على عينايَ مثلما يكونا دائمًا، شعرت بقلبي ينقبض وهو يضغط بكفيه أكثر على يدي وقال بصوت لم يستطع أن يسلم من التوتر:

- (ملك) لقد علمت أثناء عملي أن والدك يتاجر في المخدرات.

انتهي من جملته التي هزت كياني، وشعرت بزلزال أسفل قدماي إلا أنني كنت على يقين من كونه يمزح معي، فضحكت بأقصى ما لدي من قوة حتى دمعت عيناي، ونظرت له وعلامات الدهشة مرسومة فوق وجهي، وقلت وأنا أحاول كتم ضحكاتي:

- لابد أنك تمزح، هل ترى أنه الوقت المناسب لمزاحك الثقيل هذا؟

أمسك بوجهي بين كفيه بقوة وأخذ يهز رأسي قائلًا:

- أعرف أنه من الصعب عليك تصديق شيئًا كهذا، كما هو أيضًا كان من المستحيل أن أستوعب أن عمي تاجر مخدرات، ولكن صدقيني جميع التحريات والأبحاث أثبتت ذلك.

صمتُ للحظة أنظر إليه لا تستطيع شفتايَ أن تنبس ببنت شفة، ويعمل عقلي سريعًا ليحاول استيعاب ما قد قيل للتو، والدي أنا يتاجر في المخدرات، لا بالطبع هذا من مستحيل أن يحدث، لا بل هو المستحيل

ذاته، أزلت كفاه من على وجهي بعصبية وشعرت بأن الدماء تقور في رأسي وشرعت أصيح قائلة:

- ما هذا الهراء؟ كيف لك أن تقول شيئًا كهذا عن والدي؟ هل اقتنع عقلك بما تقوله هذا؟

أمسك بذراعي اللتان كانتا تتحركان بعشوائية في كافة الاتجاهات وضغط عليهما بقوة حتى شعرت بوجع فيهما، فتوقفت عن الصراخ ولم تتوقف عينايَ عن ذرف الدموع، ونظر إليّ بملامح ثابتة وقال:

- أعرف وأتفهم أن هذا الأمر يصعب عليكِ تصديقه ولكنها الحقيقة صدقيني شئت أم أبيت، وأنا أمتلك كل ما يثبت كلامي هذا.

ترك ذراعيّ واتجه إلى حيث تقبع سيارته على بعد خطوات منا واختفى بداخلها بضع لحظات، شعرت فيهم أن الأرض تميد من تحتي، وعقلي قد شُل تفكيره، ولم تعد قدماي قادرتان على حملي لأسقط بلا أدنى مقاومة وأنا أرى (إيهاب) يركض باتجاهي

****

فتحت عينايَ وأنا أتمني أن يكون كل ما حدث وما قاله (إيهاب) ليس إلاكابوسًا مزعجًا وسينتهي أثره بعد ساعات، إلاأن جميع آمالي قد خابت عندما رأيت (إيهاب) أمامي ينظر إليَّ بقلق واضح ويضرب بيده على خدي ويسأل في لهفة:

- هل أنتِ بخير؟

اعتدلت في جلستي لأجد نفسي بجواره في سيارته، وما إن جلست جيدًا حتى وجدت الدموع تهاجمني بشراسة، وعقلي لا يزال مشلولًا لا يستطيع التفكير في أي شيء، لتمتد يد (إيهاب) في حنوّ ليمسح دموعي بأسى قائلًا:

- أنا آسف حقًا أعلم أن تلك الحقيقة تؤلمك، ولكنها الحقيقة، والدك يعمل تاجرًا للمخدرات وهذه هي الأدلة.

قالها وهو يشير إلى بعضًا من ملفات الورق في يده، نظرت إليها، ثم رجعت بنظري إلى عينيه وما زال عقلي يأبى العمل، وشفتايَ عاجزتان عن الحركة، ثم أردف:

- أخبريني هل تعلمين ما هو عمل والدك؟

قلت تلقائيًا:

- رجل أعمال.

ليسأل مستحثًا:

- أية أعمال؟

كانت تلك المرة الأولى التي يسألني فيها أحد هذا السؤال، بل المرة الأولى التي يتم سؤالي عن عمل والدي، فهو رجل أعمال شهير في الإسكندرية، نظرت له وأنا أشعر بالضياع وقلت:

- لا أعرف.

قال كمن كان يتوقع الإجابة:

- بالطبع هذا هو، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن عمل والدك، ولم تهتمي يومًا بماهيته، فقط انظري معي هنا في تلك الملفات لتتأكدي من صحة كلامي.
أخذ يقرأ من تلك الأوراق اللعينة، ويشير بيده ويشرح لي وأنا أرى شفتاه تتحركان ويداه تشيران في جميع الاتجاهات موضحًا، وأنا أنظر إليه ببلاهة ولا تستطيع أُذنايَ تمييز ما يقوله، فقط أنظر إليه دون حراك، أتأمله وهو يحاول جاهدًا إقناعي بحقيقة عمل والدي، كيف له أن يظن أني أستطيع تصديق أمرًا كهذا؟ حتى وإن كان من يخبرني بذلك هو أكثر رجل أثق به في الوجود.
أنهي كلامه، ثم نظر إلى عينيّ مباشرةً، وعيناه ترجو أن أكون اقتنعت بذلك الهراء، مرت ثواني ثقيلة من الصمت وكدت أشعر بأن هناك ضوضاء هائلة في رأسي، أصوات مخيفة تصرخ جميعها تكاد تصم أُذنايَ، صوتًا يصرخ قائلًا " لا يمكن تصديق شيئًا كهذا مستحيل لوالدك أن يفعل شيئًا من هذا القبيل .". وآخر يصرخ " من يخبرك بهذا هو (إيهاب)، لا تنسِ أنه لا يمكن له أن يكذب عليك بخصوص أمر كهذا، لا تنسِ فناؤه بعمله وإخلاصه له، أنتِ أكثر من يعرف عنه هذا."
ليصرخ الصوت الأول بفزع :
- " فيمَ تفكرين يا حمقاء لا يجود هناك مجال للتفكير، والدك هو مثلك الأعلى لك في حبه لعمله، إلا تذكرين شجاركم الدائم لكونه يهتم بعمله أكثر منكِ؟"

وضعت يدي على أذنايَ بعصبية وأنا أشعر أن هناك انفجار سيحدث في أورده رأسي، لأجد يد (إيهاب) تجذبي في حنان إلى صدره دون أن تبس شفتاه ببنت شفه، وأخذ يمسح على شعري حتى سرى دفء حنانه بجسدي فهدأ من روعي قليلًا.

- يجب أن تعودي الآن إلى البيت وتنالي قسطًا من الراحة.

قالها وهو يشغل سيارته استعدادًا للذهاب، فأومأت برأسي بالإيجاب، أخذ نفسًا عميقًا، وقال وهو ينظر للأمام:

- أنا من سيحقق في قضية والدك.

وقعت كلمته عليَّ كالصاعقة التفت إليه بفزع وصرخت:

- ماذا؟ هل تمزح معي؟ بالطبع أنت تمزح، قل لي هذا.

كان ما زال ينظر أمامه وهو يقول:

- لا لست أمزح.

اختفت ملامحه من أمامي بعد أن امتلأت مقلتاي بالدموع فمنعتني من رؤيته، وقلت بصوت مرتجف:

- أنت لن تفعل هذا، على الأقل من أجلي أنا، أليس كذلك؟

مسحت دموعي بسرعة لأتبين ملامحه وهو يجيب عليَّ، لأجدها ثابتة وما زال ينظر للأمام فأجاب بصوت ثابت:

- غير صحيح يا (ملك)، لن أتعامل معه على أنه عمي أو حتى والدك، سأتعامل معه مثل أي شخص أخر، وسوف أؤدي عملي تمامًا كما ينبغي.

تجمدت في مكاني أنظر إليه مشدوهة، لا تصدق أُذنايَ ولا يستوعب عقلي ما يحدث، إنه يحاول إقناعي أن والدي مجرم وحبيبي هو من سيعمل على قضيته ويثبت ذلك للعالم!

استمرت دموعي في الهبوط وكأنها تتسابق معًا، نظرت إليه برجاء وقلت متوسلة:

- أرجوك لا تفعل هذا، تنازل عن تلك القضية، من أجلي فقط.

التفت إليَّ ورأيت ملامحه تحنو ولمعة الدموع في عينيه تظهر جليًا وقال وهو يمسح دموعي:

- صدقيني يا (ملك) لا يمكنني، أرجوكِ سامحيني فليس بيدي شيء أفعله.

أزحت يده من على وجهي بضيق وصرخت في وجهه:

- بلا، تستطيع... تستطيع أن تتنازل عن تلك القضية اللعينة، وتقف بجوار والدي وتساعده بدلًا من أن تقف في وجهه، إن كنت حقًا تحبني ستفعل هذا لأجلي دون حتى أن أطلب منك.

ضغط على فرامل السيارة بعصبية حتى شعرت بنفسي أرتطم بالزجاج أمامي، وارتميت مرة أخرى على المقعد، قال وفي عينيه نظرة غضب جعلتني ولأول مرة أشعر بالخوف منه:

- لا يعطيني حبك الحق بأن أفعل ما يخالف ضميري أبدًا، وإن كان فأنا أتنازل عنه.

ما إن قال لي هذه الكلمات حتى شعرت بقلبي يئن ألمًا وينزف دمًا من جروحه، وينفطر بكاءً، شعرت أن الأكسجين قد انعدم من حولي، وتأبى دموعي عن التوقف، أحقًا قال أنه لا يريد حبى؟! هل أنا بالنسبة له شيئًا لا يُذكر؟ أمِن السهل عليه الاستغناء عني؟! أهذه هي مكانتي لديه؟ يفضل عمله ولا يعير فقداني أدنى اهتمام، شعرت بكرامتي تُلقى أمام عجلات سيارته ليدهسها بلا أدنى شعور بالذنب، ورأيته يحطم كبريائي بمعول كُتب عليه الضمير، لا أدري كم من الوقت مر وأنا أنظر إليه ثابتة في مكاني كالجماد لا أحرك رمشًا، اعتدلت في جلستي ونظرت أمامي وقلت بهدوء يختلف تمامًا مع ما أشعر به:

- وأنا أيضًا أتنازل عن حُبك إذا استمريت في تلك القضية ووقفت ضد أبي.

زفر بضيق وعلق:

- لا تكوني عنيدة.

صرخت كما لم أصرخ من قبل وكأن طلبه هذا كان القشة التي قسمت ظهر البعير:

- أنا لست عنيدة بل أنت من استغنى، ألم تقل منذ قليل أنك تتنازل عن حبي؟ إذًا فليكن لن أكون ثقلًا عليك ولا على ضميرك بعد الآن، جئت تخبرني أن والدي يتاجر في المخدرات وأنت من سيعمل في قضيته من كافة ضباط العالم فقط لترضي ضميرك، إذًا أنا أيضًا أتنازل عن حبك.

- ماذا تقصدين؟!

أجبت وأنا أشعر أن هناك من شق صدري وانتزع قلبي منه عنوة ودهسه بين يديه:

- أقصد أنك لم تعد بالنسبة لي سوى ابن عمي فقط لا أكثر ولا أقل.

كنت أنظر أمامي إلا أني شعرت بنظراته تخترقني، ولمحته يلتفت أمامه ثم قال:

- حسنًا كما ترغبين.

***

- (ملك) أفيقي لقد وصلنا.

انتشلني صوت المحامي من سيل الذكريات التي هجمت رأسي، لأجد السيارة تقف بنا في حديقة شاسعة لم أستطع أن أرى آخرها وفي مقدمتنا تقبع المزرعة التي بدت ضخمة إلى حد كبير من الخارج فمن الواضح أنها من طابقين، طلب مني المحامي الترجل لندخل سويًا إلى داخل المزرعة، ودلفنا من بابها الخشبي الضخم والعالي إذ بلغ ارتفاعه أكثر من مترين، كان بني اللون مزخرف بنقوش بدت تراثية إلى حد ما.

ما إن وطئت قدماي داخل المزرعة حتى شعرت بعبق (إيهاب) يملأ المكان فدق له قلبي بجنون حتى شعرت بكل من حولي يسمعه، إلاأنني لم أرَ (إيهاب) ضمن من كانوا في استقبالنا حيث وجدت ذلك الرجل الذي يدعى (إبراهيم عيسي)، والذي يكون والد (إيهاب) وعمي، كانت تلك المرة الأولى

التي أراه فيها أمامي على أرض الواقع وأتصل به اتصالا مباشرًا وليس بوسائل الاتصال الحالية، دائمًا ما كنت أخبر (إيهاب) أنه ووالدي لا يشبهان بعضهما في شيء، إلا أنني الآن أرى الكثير من الأشياء المشتركة بينهما، حيث القامة الطويلة والكتفان العريضان، والشعر الأبيض الذي يغزو رأسيهما، كما أن تلك الابتسامة المميزة التي أجدها على شفتي عمي تمامًا مثل تلك التي كان يتميز بها والدي.

أفاقني عمي من شرودي وهو يتحدث إليَّ مرحبًا:

- حمدًا لله على سلامتك، أنا حقًا سعيد جدًا لمكوثك معنا.

شكرًا لك.-

أشار بيده إلى امرأة في عقدها الرابع إلا أن ملامحها تحمل من الجمال ما لا يتناسب مع عمرها، وقوام متناسق بالإضافة إلى ملابس أنيقة مهندمة إلى حد كبير، كنت أعلم أنها زوجته (نجوى بلال) ووالدة (إيهاب) دائمًا ما كان يخبرني بهوسها للنظام، وصرامة قوانينها إلا أنها تحمل قلبًا مليئًا بالحنان والطيبة، قال عمي معرفًا لي إياها:

- هذه زوجتي (نجوى).

قلت وأنا أبتسم لها ظاهريًا، إلا أن داخلي كان يبكي حزنًا لزمن أصبح في الأهل لا يعرفون بعضهم:

- أهلًا بكِ، لقد أخبرني عنكِ (إيهاب) كثيرًا.

ابتسمت وقد لمعت عيناها فرحًا، وقالت:

- وحدثني عنكِ أيضًا.

هممت بالحديث إلا أن فتاة في العشرينات من عمرها كانت تقف بجوار (نجوى)، ذات بشرة بيضاء، وعيون واسعة وأنف صغير، وذات طول متوسط.

تقدمت نحوي واحتضنتني بشدة وهي تقول:

- اه لو تعرفي كم كنت أشتاق لرؤيتك! أنا سعيدة جدًا لوجودكِ معنا، وحزينة أيضًا لما حدث لوالدك.

ما إن قالت جملتها الأخيرة حتى نهرتها (نجوى) بنظرة نارية حتى تكف عن الحديث، فقلت كما لو كنت لم ألحظ شيئًا:

- أنتِ (ندى) أخت (إيهاب)، أليس كذلك؟

هزت رأسها بشدة وقد عادت إليها ابتسامتها الواسعة وقالت بحماس:

- نعم إنها هي أنا، لقد كنت دائمًا أسال (إيهاب) عنكِ وأرى صورك معه، وكنت أتوق إلى رؤيتكِ كثيرًا.

شعرت بحماسها يُنقل إليَّ وأنا أقول:

- وأنا أيضًا كنت أنتظر اليوم الذي أراكم جميعًا فيه.

وضعت (نجوى) يدها على كتفي بحنان واضح وقالت:

- (ملك) لابد وأنك متعبه، اذهبي مع (بثينة) - وأشارت إلى خادمة كانت تقف على بعد خطوات - إلى غرفتك ستدلك عليها.

قبل أن أجيب دنا مني المحامي وقال برزانة:

- (ملك) لقد أنهيت مهمتي الآن واطمأنت عليكِ، فيجب أن أذهب.

قلت مبتسمة بامتنان:

- أنا أشكرك على كل شيء.

- لا يوجد أي داعي للشكر فأنا لم أقم إلا بواجبي.

وضع قبلة على رأسي، ثم ودعنا جميعًا ورحل، وسمعت عمي يطلب من (بثينة) أن تحمل حقائبي وتقوم بإرشادي إلى غرفتي، إلا أن ذلك الصوت الذي كان يهمس بداخلي، صرخ بأعلى صوته قائلًا " أين (إيهاب) " فوجدت نفسي أسأل لا إراديًا:

- أين (إيهاب)؟ أليس هنا؟

وجدت (نجوى) و(إبراهيم) ينظران إلى بعضهما بقلق، و(ندى) تقف بجانبي تنظر إليّ نظرة لم أدرِ معناها، فقلت بسرعة:

- سأسلم على ابن عمي، وليس خطيبي.

لا أعلم لمَ قلت هذا، ولكني شعرت بقلقهم من توتر العلاقة بيننا بسبب ما حدث، فأردت أن أوضح لهم أن (إيهاب) مهما حدث سيظل ابن عمي.

قال عمي وهو يشير إلى غرفة بجوار السلم:

- إنه في غرفة المكتب اذهبي إليه.

توجهت إلى حيث المكتب وما زال القلق يرتسم على وجهيهما، وتلك النظرة في عيون (ندى) لا أستطع أن أتبينها، هل كانت نظرة خوف؟ أم قلق؟ أم أنها نظرة شفقة؟!

ما إن وصلت لباب الغرفة حتى شعرت برائحة (إيهاب) تملأ أنفي، فدق قلبي بجنون تمامًا مثل كل مرة كنت أشم رائحته، تسارعت أنفاسي وصوته يتنادى على مسامعي لا أعرف إن كان حقًا يُحَدث أحد بالداخل أم أنني أتوهم بسماع صوته، وبيد مرتعشة طرقت الباب طرقات خفيفة، ثم جاء صوته بعد ثواني يسمح للطارق بالدخول، حينها بدى لي وكأن قدمي قد ثبتت في الأرض، ويداي قد أُثقلا بقطع من حديد وأنا أحاول جاهدة فتح الباب، وما إن فتح حتى دلفت ببطئ شديد، وأحاول بأقصى استطاعتي أن أزيح ناظري من على الأرض لأنظر إلى ملامحه المحفورة في قلبي، وبعد عدة محاولات شعرت فيها بان دهرًا قد مر تحركت بعيناي لأنظر إليه، لأرى ما يجعلني أُصعق لرؤيته، ويصرخ قلبي وعقلي في آن واحد، وثور الدماء في رأسي.

الفصل الثالث

رأيته يجلس على كرسي بجوار مكتبه وعلى قدمه تجلس فتاة تمامًا مثلما كان يُجلسني على قدميه حين أكون غاضبة منه يحاول مصالحتي، رأيتها تجلس تمامًا مثلي ليداعبها ويطلب رضاها، كانت جميلة بل رائعة الجمال بجسدها الممشوق هذا، وشعرها الأشقر، وبشرتها البيضاء اللامعة، لاحظت نظراتي لها فسألت بدهشة:

- من أنتِ؟

أردت من كل أعماقي أن أصرخ بها قائلة:

- أنا حبيبته، أنا من يجب أن تكون مكانك ليطلب رضاي وليس أنت، أنا من جئتِ أيتها البلهاء لتسرقي منها ما تبقى لها في الحياة.

انتشلني صوت (إيهاب) وهو يقول أثناء قيامه:

- إنها (ملك) ابنة عمي يا (سارة).

نظر إليّ بعيون لامعة وأشار إليها، وقال بصوت جامد صارم:

- وهذه يا (ملك) (سارة) خطيبتي.

وقعت جملته عليّ وقع الصاعقة لتحرق قلبي وتتركه رمادًا، وأنا أنظر إليه مدهوشة وعينيّ تكادان تخرجان من محجريهما، أنتظر منه أن يُكذب ما قاله لسانه للتو، إلا أني لم أرَ منه سوى الجحود، ونظرة عتاب في عينيه لا أدري ما سببها، طال الصمت وأنا أسمع تلك الـ(سارة) تتلو على

مسامعي كلمات الترحاب والاستقبال، وعيناي مثبتتين على وجهه أنتظر منه أن يخبرني أني أنا وحدي هي خطيبته وحبيبته وليس سوايَ ولكنه ظل جامدًا بنظرة العتاب التي تلوح من عيناه، قلت بصوت يشوبه البكاء ويخرج من بين شفتاي المرتعشين:

- أنت تمزح معي أليس كذلك؟!

نظر إلى تلك الـ(سارة) وقال بملامحه الصارمة:

- انتظريني بالخارج يا (سارة) فأنا أريد أن أتحدث معها بأمر هام.

لمحتها تنظر إليَّ بغضب قبل أن تخرج وتغلق الباب خلفها، نظرت إليه مجددًا أنتظر منه توضيح لما قاله، لأجده يرمقني بنفس نظرة العتاب التي تطل من عيناه، صرخت مرة أخرى بصوت مرتعد:

- ليس صحيحًا ما يحدث، أليس كذلك؟!

ليجيب بصرامة:

- بلى صحيح يا (ملك).

- لا ليس صحيحًا، أنت تحبني أنا، أنا هي من يجب أن تكون خطيبتك وليس هي.

قال بعتاب:

- أنتِ تقولين هذا بعد فوات الأوان يا (ملك)، فـ(سارة) الآن خطيبتي وقريبًا ستصبح زوجتي، وما أعرفه أنكِ أنت السبب في هذا.

- أنا السبب!! ماذا تقول؟ هل طلبت منك أن تذهب وتخطب غيري؟

- لا لم تقولي، ولكنك طلبت مني أن أكون لكِ ابن عمكِ فقط، ألم يكن هذا طلبك؟

- أنت بالطبع تمزح يا (إيهاب)، لم أطلب هذا بمحض إرادتي وأنت تدرك هذا جيدًا.

- لا يا (ملك) لقد كنتِ جادة في طلبه، وحينها شعرت بمدى صغر مكانتي لديكِ.

- أنت من أجبرتني على هذا، حينما أخبرتني أنك على استعداد لتتنازل عن حبي مقابل أن تخلص لعملك، ألم تقل هذا؟

صرخ بغضب جعل الخوف ينتابني:

- كان يجب أن تفهمي أنه تعبير مجازي يا (ملك)، مجرد جملة أود أن أوضح لكِ بها أنني لا يمكن أن أتخلى عن مبادئي، كنت أنتظر منكِ أن تتفهمي موقفي، وتشجعيني على ما أفعله بدلًا من أن تبتعدي عنى وتطلبين أن نكون أقرباء، حسنًا إذًا لقد لبيت لكِ طلبك

لمِ تأتين الآن تلومينني على ما أفعله وأنتِ السبب فيه؟

قلت وأنا أحاول أن أوقف بكائي بيدي:

- لقد مات أبي، وأنت الآن تعاقبني لشيء طلبته في لحظة غضب، بدلًا من أن تكون أول من يقف بجواري.

قلت جملتي، وخرجت دموعي من عيني كالشلالات لا تجد عائقًا أمامها، شعرت بالضعف يدب في قدماي فجلستُ على أقرب مقعد بجواري، واجهشت في البكاء.

****

جثا على ركبتيه أمامي وأزاح كفي من على وجهي بحنانه الذي أعرفه، ومد يده ليزيل دموعي قائلًا:

- أنا حقًا آسف لوفاة والدك، لكني لست قادرًا على محو صورتك من مخيلتي وأنتِ تتهمينني بقتله.

سألت مشدوهة:

- ماذا؟ أنا أتهمك بقتل أبي؟

نظر إليَّ متأملًا كأنه يريد أن يغبر أسواري ليقول:

- نعم، حينما مات وجئت لك في المشفى صرختي بوجهي وطلبتِ مني أن أرحل عنكِ ولا أريك وجهي مجددًا وعلّلتي طلبك هذا بأنني قاتل والدك في نظرك.

أخذت أهز رأسي بعصبية نافية ما يقوله:

- لا أذكر أي شيء من هذا، صدقني لم أكن في وعيي حين قلت لك هذا.

ظفر بضيق وقال:

- أعرف، لقد قلت ما يدور بعقلك الغير واعي، فأنت يا (ملك) تؤمنين بداخلك أنني سبب موت والدك، ولا يمكنني أن أكمل معك وأنا أعرف أنك تنظرين إليّ على أنني قاتل والدك، أو حتى كنت سببًا في موته.

- لكنني لست أفكر هكذا.

- (ملك) أرجوكِ أخبريني بصدق، إلا تشعرين من أعماقك أنني كنت سببًا من أسباب وفاة والدك؟ جاوبي بصدق ولا تخشي شيئًا، أنا أرجوكِ.

نظرت إلى عينيه التي لطالما تحلق بي في عالم آخر، لأرى فيها نظرة الرجاء وأنا أفكر فيما سأقوله فقلت بتردد:

- أنا أؤمن أن عمر أبي قد انتهى، وموته قضاء وقدر.

اشتدت قبضته على يدي وهو يسأل بصرامة:

- هل كنت سببًا في موته أم لا؟!

أجبت بتردد أكبر:

- نعم، كن.....

لم أكمل جملتي حتى وجدته يترك يدي بعصبية وينهض وهو يزفر قائلًا:

- حسنًا إذًا إن كل ما قلته لي في حالة انهيارك هو ما تؤمنين به، وأنا لا أستطيع أن أكمل معك وأنتِ تعتقدين أنني سبب في موت والدك.

تساءلت باستنكار:

- أتلقي اللوم عليّ؟

قال بصرامة وهو ينظر للاتجاه الآخر:

- أنا لا ألقي اللوم على أحد، ولكنكِ طلبت شيئًا وأنا أنفذه لكِ.

انعقد لساني وشُل عقلي وأنا أنظر إليه لا أحرك ساكنًا، إلا أني شعرت بجميع الأشياء تدور من حولي والأرض تميد بي، ولكني استجمعت قوايَ فأنا لا أريد أن أنهار الآن، طال صمتي وأنا أنظر إليه لا أقدر على تصديق ما يحدث، وأن كل شيء بيننا ينهيه هكذا بتلك السهولة، والأدهى من هذا أنه يلقي اللوم عليَّ، بدد الصمت بقوله:

- بالإضافة إلى أنني خطبت (سارة) الآن، ولا يمكنني أن أطلب منها الابتعاد وأجرحها هكذا بكل سهولة، فقد جرحت من قبل وأنا أدرك جيدًا كيف يكون وجع الألم الذي يسببه لك الحبيب.

نظرت إليه بأعيني الدامعة، وشعرت أن هناك من يجثم فوق صدري يمنع عني الهواء، ويكتم أنفاسي، تجاهلت ذلك الضيق الذي يغزو صدري، فنهضت من مكاني، وأنا أتظاهر بالتجلد وقلت بينما يعتصر قلبي ألمًا:

- مبارك لك خطبتك.

ردّ عليَّ بابتسامة شاحبة جعلت قلبي يخرج آخر أنفاسه، فأوليت له ظهري وتوجهت نحو الباب بخطوات ثقيلة وكأن قدماي ترفضان الذهاب، وبداخلي يتمني لو يناديني ويخبرني بأنه يتراجع عن كل ما قاله، وبأنه يحبني أنا وفقط، لكم أتمنى أن ينادي اسمي الذي اعشق نغمته من بين شفتيه، ويفرد لي ذراعيه لأذوب بينهما وأنهل من رحيق دفئه وحنانه.

فقط لو يناديني ولو لمرة.....

"(ملك)"

تسمرت قدماي في موقعهما، وشعرت بالحياة تعود لقلبي مرة أخرى، ويطير عقلي فرحًا، التفت أنظر إليه بلهفة وشوق لما سيقوله، وقلت بصوت مختلج مضطرب:

- نعم.

ليجيب بصرامة:

- أرجوكِ لا تخبري أحدًا وخصوصًا (سارة) بما كان بيننا!

****

صاعقة نزلت فوق رأسي هشمته، وخنجرًا مسمومًا أصاب قلبي فقتله، تسمرت مكاني للحظات وعيناي جامدتين في محجريهما، وبدأ الضعف يسرى بقدماي معلنًا عن سقوط حتمي، وقبل أن يتمكن الضعف منهما تمالكت نفسي بكل ما لدي من قوة، وسحبت نفسًا شعرت به يدخل رئتاي يزيدهما اشتعالًا ولهيبًا، أكملت طريقي ناحية الباب ولدي شعور قوي أني مغيبة عن الواقع، فقط أريد الذهاب إلى عالم آخر لا يعرفني فيه أحد لأصرخ بكل قوتي " يا قلبي اهدأ "، فتحت الباب وأنا أتكئ عليه وأستمد منه القوة، لأجد الخادمة في انتظاري وبيدها حقائبي، ما إن رأتني حتى هرعت نحوي وعلامات الفزع جليه على وجهها، سألت بلهفة وهي تساندني:

- هل أنتِ بخير سيدتي؟!

خير؟ أي خير هذا!! كيف سأكون بخير أخبريني، تخلي عنى الحبيب، ورحل السند، ليموت قلبي من الوجع.....

وتئن روحي من العذاب، ويتألم جسدي لكليهما.

سمعتها تصرخ بما لم يستوعبه عقلي المشتت حينها، ليأتي عمي مسرعًا وخلفه زوجته و(ندى)، سمعته يصرخ بها لتذهب وتحضر لي ما أتناوله، وعالجني قبل أن تخونني قدمايَ، وأسقط طريحة، فحملني بين ذراعيه، وشعرت به يسرع في خطاه التي قاربت العدو، ليضعني فوق فراش، ومسح على رأسي في حين كانت نظراتي مثبتة نحوه، ودموعي تهبط من عيناي في تناوب دون توقف، لكم تمنيت في هذه اللحظة أن يكون والدي، تمنيت أن يكون هو من يمسح على رأسي الآن، لكم أشتاق إلى حضنك أبي، تقتلني نار الحنين إلى ضمتك التي تنتشلني من آلامي وأحزاني، فأشعر حينها بالأمان والطمأنينة، كم أحن لأن أبكي على كتفك يا أبي، أبكي بكل ما أملك من دموع، أبكي لتواسيني بصمتك الحنون، وحبك الجارف، ويداك القويتان بما تحملانه من حنان، أشتاق حقًا لأن ألقي بنفسي بين ذراعيك، وأشهق بضعف، وأصرخ بجنون، وأخرج كل ما يعتمر بصدري، لمَ لا تعود يا أبي؟؟ لمَ لا تعود وتخبرني بأن كل ما يحدث هذا ليس سوى محض هراء، لا أكثر ولا أقل؟!

****

أراك الآن أمامي، تجلس بِوَقارِكَ الذي أعرفه، تضع قدمًا فوق الأخرى، تقلب في يديك صفحات الجريدة، تقرأ بتركيز شديد، تكاد لا تشعر بأي شيء حولك، وكأنك في عالم آخر

تنفث دخان سيجارك الغالي مع كل سطر تقرأه، يرتفع الدخان لأعلى في هدوء وبطئ شديدين، أتابعه بفضول وهو يتكور في الهواء، ويتلاشى تدريجيًا ليظهر خلفهما وجه ضحك قلبي لرؤيته، إنه (إيهاب) أراه قادمًا من بعيد، بخطواته المدروسة، ومشيته المعهودة التي لطالما تترك انطباعًا لمن يراه بأن لديه موعد وتأخر عنه، اقترب أكثر حتى دنى منك وحياك بأدب وود، ثم جلس بجوارك وعلى محياه ابتسامة خفيفة زادته وسامة فوق وسامته، رأيته يحدثك وأنت تتفاعل معه، وابتسامة عريضة تلاعبت فوق شفتاي، فها هما رَجُلاي يجلسان معًا ويتحاوران وأنا أراقبهما بصمت، وأتابع حديثهما الذي لا أسمع منه حرفًا، تقلصت ابتسامتي شيئًا فشيئًا وأنا أرى ملامح (إيهاب) تتبدل إلى ضيق شديد، ووجهه يحمر كعادته عند الغضب، ويداه تتحركان بعصبية كأنما يريد أن يدخل في شجار بهما، وأنت يا أبي تقف مذعورًا وتصرخ به وتشير بيدك له بأن يخرج، وأنا أحاول جاهدة بأن أتحرك من مقعدي فأفاجأ بقدماي مثبتتين في الأرض ولا أستطيع الحراك، انظر إليكما بعينايَ الدامعتان لأتفاجأ بك يا أبي مطروحًا على الأرض داخل كفنك الأبيض، بعدما اختفى (إيهاب) تمامًا كأنه لم يكن، أصرخ بأعلى صوتي وأنا أجاهد لأحرر قدماي، ولكن

يأبى صوتي الخروج، تكاد تنفجر حنجرتي وأنا أساومها على النطق بلا جدوى، وعروق عنقي التي تغذيها تنتفخ محملة بالدماء، ولكن هيهات.....

أجد نفسي فجأة مطروحة على فراش بلله دمعي، في غرفة غريبة على ناظري، تجولت بعيني بها وتذكرت أنني داخل غرفتي في منزل عمي، لتصارعني الأحزان وأشعر بعروقي تشتعل بدمائها، والسرير من تحتي يشتعل بنيران الفقد والخزلان، ويموج صدري بلهيب الألم ومرارة الوجع، تطرح عيناي الدموع بغزارة دون أن تنضب، وقلبي ينقبض بألم بين أضلعي، أضع يدي على صدري وأتوسل بأدمعي أن يكف عن تعذيبي، فلم أعد قادرة على تحمل المزيد، سيقتلني الألم حتمًا، توجهت إلى الشرفة بشق الأنفس فتحتها لتتفاجأ عيناي بنور الشمس المحرقة، وتنير الغرفة ليظهر لي أثاثها واضحًا جليًا، يحمل ذوق (إيهاب) بشكل غريب، أم أنني من أشعر بهذا فحسب، نظرت إلى المرآة لأجدها تنظر إليَّ بشماته وتظهر لي لسانها، قائلة " انظري إلى نفسك جيدًا أيتها البائسة، ها أنتِ ذي وحيدة بلا سند، خزلك من أحببتِ، وذهب إلى أخرى، أنظري إلى نفسك جيدًا.....

كيف أصبحتِ هزيلة، ضعيفة، ضائعة، وحيدة."

علا صوتها أكثر فأكثر، والألم في رأسي يتفاقم، وضعت يداي على أذنايَ بعصبية وأنا أصرخ بها:

- كفى!

أستجديها لتكف عن قول ما أعرف وأعيشه، لكنها كانت مصرة على تمزيقي أكثر، استمرت في حديثها....

واستمر الألم يتفاقم في رأسي، واستمريت أنا في الصراخ بها أن تكف، ليقطع صراخي صوت الباب وهو يفتح بشدة وتظهر (نجوى) من خلفه ومعها (ندى)، ومن نظراتهما فقط أدركت جيدًا أنني لم أكن بحالة طبيعية أبدًا، وفي ظرف ثانية كانت ذراعيّ (ندى) تطوقاني بحنان أخت لم تنجبها أمي، وبكيت بكل ما يعتمر بداخلي من طاقة، تشنجت كما لو كنت لم أبكِ منذ سنين، كان جسدها يهتز مع جسدي

إلا أن روحها لن تستطيع الإحساس بخدوش روحي، التي سببها لي أخوها، تألمت حنجرتي، وصرخت شراييني أن كفى، لا يوجد لدينا من الطاقة ما يكفى للبكاء، واختفى صوتي إلا أن دموعي لم تنضب بعد، ابعدتني (ندى) ونظرت إليَّ وعيناها ممتلئتان بالخوف قائلة:

- أرجوكِ كفاكِ بكاءً، فليس هناك من يستحق هذا كله.

زادت كثافة دموعي، وزادت رجفة شقتاي، ولم أنبس ببنت شفة، لمحت في عيناها الدموع ونظرة شفقة تطل منهما، حين اقتربت (نجوى) تمسح دموعي بابتسامة هادئة، وطلبت مني أن أجلس مع (ندى) ريثما تطلب من الخادمة أن تحضر لي الطعام، طعام! ولكن أي طعام هذا سيجدي مع من اجتثت منه روحه؟! أي طعام يقدم لميت؟

أتسخر مني تلك المرأة أم ماذا؟! هل تظن بأن الطعام هو الذي سيداوي جروح روحي؟! هل تعتقد حقًا بأن ما ينقصني هو الطعام؟ إن ما ينقصني أكبر بكثير، ينقصني الأمان الذي لطالما حييت فيه مع أبي، والحنان الذي كساني به حتى مع غياب أمي، ينقصني الدفء الذي غمرني به (إيهاب)، ينقصني الغرام والعشق الذي أغدقني به، ينقصني وبشدة نظرة الحب في عيناه، ينقصني هو.....

ينقصني.....(إيهاب).

الفصل الرابع

أجلس على الكرسي بجواري (ندى) التي لم تدع أمرًا إلا وتحدثت بشأنه، إنها رقيقة حقًا، تمامًا مثلما وصفها لي (إيهاب)، تمتلك من الحنان والطيبة ما يجعل كل من يقابلها يذوب بها عشقًا، ارتسمت ابتسامة تلقائيه على شفتاي وأنا أذكر كيف كان يصفها لي...

كنا نجلس سويًا في منزلنا أمام شاشة التلفاز في ساعة متأخرة من الليل، حينها كان والدي خلد للنوم بعد محاولات فاشلة للسهر، كنت مأخوذة بالفيلم المعروض أتناول حبات الفشار بنهم شديد، وقال (إيهاب) بغته وهو ينظر إليَّ بابتسامته التي يبتسم لها قلبي:

- تأكلين الفشار تمامًا مثلما تتناوله أختي.

قلت مداعبة:

- حقًا، وهل لأكل الفشار طقوسًا خاصة؟!

اعتدل في جلسته، وقال كمن يشرح أمرًا هامًا:

- بالطبع، فأنت تفعلين تمامًا مثلما تفعل (ندى)، تتناول في يدها الكثير من حبات الفشار، وأنا حقًا إلى الآن لا أدري ما الحكمة في ذلك، طالما الطبق ممتلئ أمامكما، ثم تضع في فمها ثلاث حبات معًا، وقبل أن يتم بلعهما يكونا بصحبة الثلاثة الأخرون، كما لو أنها في تسابق مع الزمن، تمامًا مثلما تفعلين أنتِ الآن ولا تتركين لي مجالًا لأن أتناول ولو القليل.

وكزته بخفة في كتفه، قائلة باستنكار:

- هل تقصد أني بلا ذوق وأتناول الكثير من الطعام؟

هز رأسه بشدة مؤيدًا:

- أي نعم.

ضربت رأسه بأقرب وسادة التقطها يداي، بينما كان يحاول التقاط أنفاسه من الضحك، وأخذ مني الوسادة بقوة وقال:

- لا تغضبي لم أقصد أن أقول هذا بالطبع.

قلت مصطنعة الغضب:

- تقصد ماذا إذًا؟

قال وابتسامته الواسعة تزين وجهه:

- أنا فقط شبهتك بأختي، ولا أقصد أنك تشبهينها في حب الطعام فقط، بل أني دائمًا ما أشعر أنك تحملين من الحنان والطيبة ما يجعلني أتذكرها لدى رؤيتك.

علقت بشيء من الزهو:

- وهل هناك من يمتلك حنانًا مثلي؟!

ضحك ملئ شدقيه على طريقتي المسرحية في طرح السؤال، ثم أجاب بعينين لامعتين:

- نعم، إنها مثلك تمامًا

تمتلك من الحنان والطيبة ما يجعل كل من يقابلها يذب بها عشقًا، تماما مثلما ذبت أنا في عشقك.

اشتعلت وجنتاي بنار الخجل، وابعدت عيني سريعًا، وأنا أسمع دقات قلبي المتراقصة في أذناي، ليكمل قائلًا:

- بكل تأكيد ستلتقيان عما قريب، وسأكون سعيدًا جدًا في هذا اليوم، حينما أرى أختي وزوجتي أجمل امرأتان في عالمي معًا.

كان يقولها بثقة، والتقطها منه بثقة مماثلة، لم أكن أدري حينها أننا سنكون معًا، ولكن ليس مثلما قال، أنا الآن معها يا (إيهاب) ولكن لست زوجتك، أنا مجرد طائر جريح العشق، ينزف جرحه دون أن يجد من يداويه.

******

كانت (ندى) تحاول جاهدة أن تثيرني بأي طريقه، لينطق لساني ولو بكلمة واحدة، فكانت تسألني تارة عن وفاة والدتي في صغري، وتتحدث عن نفسها تارة، ثم تأخذ رأيي فيما فعلته يومًا ما، لم أكن أريد أن أكون فظة معها، خاصة وهي لا تستحق من المعاملة سوى أجملها، ولكني لم أقدر حتى على إبعاد شفتاي عن بعضهما، فقد تيبس جسدي بأكمله وتسمر مكانه، وبينما كانت تحاول (ندى) فتح أي مجال للحوار بيننا، دلفت الخادمة وبيدها "صنية" الطعام

لتضعه على المنضدة أمامي، وأنا أتابعها بعيناي

وبداخلي يضحك ساخرًا، هل حقًا ما ينقصني هو الطعام؟
طلبت منها (ندى) الذهاب والعودة بعد دقائق أكون حينها أنهيت حاجتي من الطعام، ما لم تكن تستوعبه (ندى) حقًا هو كوني لست بحاجة إلى أية غذاء لبدني، ما أحتاجه حقًا هو غذاء وعلاج لروحي السقيمة، دفعت بالطعام نحوي وهي تطلب مني أن أشرع في تناوله، نظرت إليها بعيناي وحركت رأسي علامة الرفض، قالت بشيء من الإصرار:
- لا، يجب أن تتناولين أي شيء، انظري إلى وجهك لقد أصبح ذابلًا.
أنهت جملتها وهي تضع بفمي بعض القيمات، تمامًا مثلما تفعل الأم مع ابنها العنيد، ولكن ما إن وضعت الطعام بفمي، حتى شعرت به ثقلًا أثقل لساني، وأعجز أسناني عن الحركة، تطلب مني الأمر كثيرًا من القوة لأمضغ تلك اللقيمة، وبعد معاناة تم مضغها، وها هي تبدأ رحلة
القذف بها إلى المريء، شعرت بها كالغصة وقفت في حلقي تأبى الانزلاق، مددت يدي المرتجفة نحو كوب الماء تحت أنظار (ندى) القلقة، وارتشفت قليلًا من الماء ليزيحها وتنزلق بألم، فكانت مثل الأشواك التي تترك إثرها جروحًا مؤلمة، نظرت بعيني التي لا أذكر متى كانت خالية من الدموع نحو (ندى) فكانت تنظر إليَّ في توجس، وأردت أن أطمئنها وأخبرها أنني لن أستطيع تناول المزيد، فتحت شفتاي استعدادًا للحديث ولكن، شعرت بصوتي يتحشرج في حنجرتي، حاولت مرة أخرى

فإذا به يأبى الخروج، نظرت إليها مصدومة، وجدتها تحملق في وفي عينيها نظرة محفزة تشجعني على الكلام، حاولت مجددًا ولكن هيهات.

******

" صدمة عصبية جعلتها غير قادرة على الكلام مؤقتًا "

كانت تلك الجملة التي شخص بها الطبيب حالتي، قبل أن يغادر بلا أدنى اهتمام أو تأثر كما لو كان يرى الكثير ممن يعانون مثلي، لكنه بلا شك لا يدرك ما يموج في صدورنا من آهات، كنت ملقاة على فراشي بلا حركة وكأنني جثة هامدة بلا روح أو حياة، تجلس (ندى) بجواري باكية على حالي، وإلى جوارها (نجوى) التي كانت تحمل بعينيها حنان أم لابنتها، دخل عمي الغرفة بعدما قام بتوصيل الطبيب إلى الخارج، توجه إليَّ بالحديث وهو يجلس بجواري:

- لا تقلقي عزيزتي، ستصبحين بخير وتعاودين الحديث مرة أخرى.

تلقيت مواساته بصمت دون أن يرمش لي جفن، بينما شهقت (ندى) وهي تسأله:

- إلايوجد شيء يا أبي لنفعله؟! لا يجب أن نظل صامتين هكذا.

ربتت (نجوى) على كتفها، وبصوت منكسر قالت:

- كل ما بوسعنا فعله هو وقوفنا بجوارها، والعمل على إخراجها مما هي فيه.

لتنظر إليّ (ندى) بعيونها التي تحول بياضها إلى الحمرة، ومسحت برقة على شعري وقالت بحنان:

- يجب أن تكوني أقوى يا (ملك)، فإن لم يكن لأجلك فلأجلي إذًا.

يا لتلك الفتاة الرائعة! كيف لها أن تكون بكل هذا الحنان! وتلك الكمية الهائلة من الطيبة!

أتدري يا (ندى)، لم يبالغ (إيهاب) أبدًا في وصفك، بل إنه حتى لم يعطيكِ ما تستحقين، يؤلمني نقائك الذي يجعلك تتألمين لأجلي، ويعذبني صفاء روحك التي تجعلك تعانين بسببي، كيف لكِ أن تكوني بكل هذا الجمال؟! صدقيني جميلة مثلك لا يجب لها أن تتعذب لأحد، ما يؤسف حقًا هو كونكِ تعانين فقط لجمالك الداخلي ليس إلا.

رحل عمي ليدبر شئون عمله في المزرعة بعدما اطمأن عليَّ وتركني في صحبة (نجوى) و(ندى)، ظلا بجواري يفتعلان من الأحاديث أصغرها في محاولة لكسر تعابير وجهي الجامدة، وبالرغم من ثرثرتهما في كافة الأمور إلا أنني لاحظت ابتعادهما في أحاديثهما عن (إيهاب) كل البعد، لابد وأنهما يظنان أني لا أريد سماع أي شيء عنه، ما لا يعرفانه حقًا هو كوني أتوق لمعرفة كل شيء حدث معه بدوني، أريد سماع كيفية خطبته لتلك الحمقاء التي تدعي (سارة)، أريد أن أعرف هل هو من طلب الزواج منها؟ أم أنهم من أجبروه على هذا؟

ما بالكِ يا (ملك)؟! أتسخرين من نفسكِ أم ماذا؟! تعلمين جيدًا أن ما من أحد يمكن له بأن يجبر (إيهاب) على أيما شيء

حتى أنتِ لم تستطيعي في أي وقت مضى ردعه عن شيء يريده، أو إجباره على فعل ما لا يريده، هو عنيد وأنت أكثر من يعلم هذا، فلمَ إذًا تتساءلين إن كان قد أجبره أحد على الزواج بها، رغم كونكِ توقنين الإجابة؟

أم أنك تريدين أن تبحثي عن عذر له، تريدين أن تثبتي لنفسك أنه كان وما زال يحبك؟

انتشلتني من شرودي وخزة خفيفة في ذراعي أدركت أنها إبرة ذلك المحلول الذي وضعه لي الطبيب، يحمل إلى جسدي من الغذاء ما يجعلني أبقى على قيد الحياة، كانت (نجوى) تنتزعها بعدما أفرغ ما فيه داخل جسدي، نظرت إليها بامتنان، فابتسمت لي بودِ وكأنها فهمت أني أود شكرها على ما تقدمه لي من حنان، اقتربت مني ثم وضعت قبلة على رأسي اقشعر لها بدني دون سبب واضح، ثم قالت:

- سأترككِ قليلًا مع (ندى)، وأذهب لألقى نظرة على شئون المزرعة، وسأعود إليك مجددًا يا عزيزتي.

هززت رأسي، وحاولت أن ابتسم لها بعيناي فغادرت وهي تلقي لـ(ندى) بعضًا من التوجيهات، وتحذرها من أن تنسى دوائي.

غادرت وتركتني بصحبة (ندى)، التي لم تتوان عن فعل ما بوسعها لتسليتي وحسب، كانت تقص لي كل شيء عن عالمها، ودراستها الجامعية، وصديقاتها، ونشاطاتها، وموهبتها في الرسم، ووعدتني أن ترسمني في يومٍ من الأيام قائلة:

- لا بد وأن أرسم وجهك الرائع هذا، ولكن يجب أن أرى البسمة تزينه أولًا قبل أن أبدأ في رسمه، أما غير هذا فلا.

قالت جملتها بطريقة طفولية، فتسللت ابتسامة خفيفة إلى ثغري وأنا أراقبها وهي تتحدث إليَّ بحب، وكأنها كانت تعرفني منذ زمن أزلي، أنت حقًا محظوظ يا (إيهاب) على امتلاكك أخت مثل (ندى) في صفاتها الملائكية تلك.

شعرت بإنهاك شديد، وتعب ينتشي بأوصالي، فأغمض عيني جلبًا لبعض من الراحة المزيفة لجسدي، كانت كل ذرة بجسدي تتألم في صمت، وذلك الألم في رأسي يتزايد شيئًا فشيئًا، وكأنه أقسم على تمزيق شرايين رأسي إربًا إربًا، وكأن حواسي توقفت عن عملها إلا من استقبال الألم كضيف ثقيل لا أدري متى يرحل؟

ولم أشعر حتى بـ(ندى)، لم أكن أدري إن كانت لا تزال جالسة بعد أم رحلت؟

كل ما أفعله هو إغلاق جفنيّ، والاستسلام للألم الذي يتفشى بجسدي بلا توقف، تنبهت حواسي فجأة

وأنا أسمع ذلك الصوت الباكي الذي لم يفارق سمعي حين كنت بغيبوبتي، ونفس النبرة الحزينة المصحوبة بكلمات حزن لم أستطع تميزها، انتفض جسدي حين شعرت بدموع ساخنة تنساب على وجنتاي في مرارة، لأفتح عيني وأنتفض حين أجد وجهه على بعد سنتيمترات من وجهي، ويدي يتم اعتصارها بين كفيه، اعتدلت في فراشي وأنا أنظر إليه مشدوهة، وأكاد أجزم أن فكي السفلي كاد ينخلع من مكانه، هل أحلم أم أن (إيهاب) بالفعل يجلس الآن أمامي ويبكي بشدة كما لم أره يبكي من قبل؟!

****

تطلب الأمر مني دقائق لأستوعب أنه يجلس أمامي بالفعل، وآثار البكاء على وجهه، أمسك بكفي بين راحتيه وقربها بحنان نحو ثغره وطبع عليه قبلة حانية حملت من المشاعر ما جعلت أطرافي ترتعد، وأنفاسي تضطرب، وقلبي يدق بجنون حتى كاد ينخلع من بين أضلعي، قال بصوت باكي جعل قلبي يبكى معه:

- أرجوكِ كوني أقوى من هذا، عودي (ملك) المرحة المنطلقة، لا تزيديني عذابًا وأنا أراكِ هكذا.

دق قلبي بعنف، وتدافعت أدمعي بجنون، وتسارعت أنفاسي مما جعل صدري يعلو ويهبط بشدة، وقلت بصوت غير صوتي:

- هل أنت من كنت تجلس بحواري في المشفى، حينما كنت بالغيبوبة؟!

نظر إليَّ بعيون منكسرة، وأجاب بصوت يشوبه البكاء:

- لم أتركِ لحظة واحدة، رحلت فقط حين ظهر عليكِ بوادر الشفاء، حينها خشيت مواجهتك، فرحلت.

سألته بصوت مرتعد، وأنا أنظر إليه بترقب وخوف:

- هل ما زلت تحبني؟؟

أمسك وجهي بين كفيه، ومسح دموعي بسرعة، وقال بلهفة من يخشي ضياع شيء مهم منه:

- لم أتوقف عن حبك يومًا لتطرحي لي هذا السؤال، أنا أحبك بكل جروحي وحواسي

أنتِ ملاكي يا (ملك)، أنتِ من أحيا بعشقها، صدقيني لا تكفى كلمات العالم أجمع لكي أصف لكِ مدى حبي وولعي بكِ.

أجهشت بالبكاء، وعلا صوت نحيبي، اهتزت كل ذره بجسدي وأنا أجد نفسي مطوقة بذراعيك القويتين، ازدت تكورًا بين أضلعك، تمنيت لو أشق صدرك وأختبئ داخله، أو أظل هكذا بين ذراعيك مدى الحياة، لا أحتاج لشيء آخر.

هذا كل ما أتمنى، أن أظل تحت عرش مملكتك.

لا أدري كم مر من الوقت على حالتنا تلك، وأنا أبكى بين ذراعيك، ربما دقائق أو ساعات، أم إنها أيامًا

أو سنينًا أو حتى دهورًا، حقًا لا أعلم.

ظللنا هكذا مدة لست قادرة على تحديدها، ما أقدر حقًا على تحديده هو أنني كنت كالقطة المشردة التي ما إن وجدت ملجأ لها، تشبثت به بكل ما أوتيت من قوة، فكنت أنت يا (إيهاب) ملجأي ووطني، وملاذي الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان.

توقفت عن البكاء، وساد الصمت إلا من صوت دقات قلبك المتسارعة، وأصوات أنفاسك اللاهثة، لم أرد أن أتحرك من فوق صدرك الآمن إلا لأنظر لعينيك وأنهل من بحورهما مزيدًا من الأمان، وبعد لحظة صمت قطعتها أنا متسائلة:

- وماذا عن (سارة)؟!

لمحت بعيناك دهشة مفاجئة، وقلت وأنت تحاول إخفاء توترك:

- لا أفهم ماذا تعنين؟!

حاولت تمالك نفسي، وأنا أجيب:

- ألم تقل أنك تحبني قبل قليل؟

أجاب على الفور:

- طبعًا.

- إذا وماذا عن (سارة)؟ أم أنك تحبها أيضًا؟

توجع قلبي وأنت تغمض عيناك، وتشحذ نفسًا من صدرك، أدركت حينها أنك لست على استعداد بالتخلي عنها، فأنا أعرفك يا (إيهاب) حق

المعرفة، فلو كنت تريد البقاء معي مقابل التخلي عنها لأجبت دون تردد، لكنك فكرت قبل أن تقول:

- لا يا(ملك)، أنا لا أحب غيرك، وأنا على يقين أنك تعلمين هذا

ولكن حبى لكِ لا يعطيني الحق في جرح قلب فتاة غيرك، وخصوصًا إذا كانت تحبني بإخلاص مثل (سارة).

صرخت بصوت متقطع من البكاء:

- أنت محق فعلًا، فحبك لي يعطيك الحق في أن تجرحني أنا، وتمزق قلبي تحت قدميك، فلا يهم ما يهم حقًا هو أن تحافظ على مشاعرها هي، حبك لي يعطيك الحق في كسري دون حتى أن تلتفت لتطمئن عليَّ.

وضعت يدك على فمي لتمنعني من مواصلة الحديث وقلت:

- لا، أنا لم أقل هذا، وعليكِ أن تفهمي وتدركي جيدًا أنني أيضًا أتألم لبعدي عنكِ.

- حسنًا إذًا، إذا كان كلأنا يتألم في بعده عن الأخر، لمَ لا نكون سويًا فحسب؟!

انتفض جسدي وأنا أراك تقف أمامي بعصبية شديدة، وتوليني ظهرك، وتصرخ قائلًا:

- هل تظنين حقًا أن الأمر بتلك السهولة التي تتحدثين بها؟! أنت تتحدثين عن قلب ثالث سيحطم دون أدنى ذنب، سوى كونه من اخترته في لحظة غضب وحزن مني ليكن بجانبي.

التفت إليَّ بحدة وأكملت والدموع تتراقص بين مقلتيك:

- لا يمكنني أبدًا أن أتخلى عنها، وأحملها ذنب خطأ اقترفته أنا.

أنهيت حديثك وأنت تنظر لي نظرة رجاء لا أفهم ماذا كنت تعنى بها، هل حقًا ترجو مني أن أوافق على وجودك مع غيرى؟ ما هذا الهراء؟ أتعلم أمرًا أني أقبل بكونك تصبح رمادًا ولكن لا أقبل بامرأة غيري معك.

وقف كلانا ينظر للآخر دون كلمة واحدة، نظرت إليك بألم

وقد أدركت أنه مهما حدث، وبرغم حبك لي، فلن تتركها وتكون معي، أدركت حينها أن الكلمات في هذا الموقف لن تجدي بشيء، بل ستحطم ما تبقى من كبريائي، وتترك مزيدًا من الجروح والكدمات بروحي السقيمة، ظللنا على حالتنا تلك من الصمت إلى أن قطع صموتنا طرقات على الباب، تبعها ظهور تلك الحمقاء من خلفه، ألهب ظهورها في قلبي نيران الحقد والغضب، تمنيت لو كنت على ما يرام لأمسك بشعرها الأشقر هذا ورميتها من النافذة لأتخلص منها إلى الأبد.

ألقت علينا التحية، وقالت لي بابتسامة كريهة:

- ألف لابأس عليكِ، جئت للاطمئنان على حالتك.

بالرغم من عودة صوتي، إلا أنني تظاهرت بعدم القدرة على الحديث، وكان هذا أفضل ما قمت به، فلو أنني أجبت عليها لكنت ألقيت عليها وابل من الشتيمة واللعنات التي أعرفها وغيرها مما لا أعرفه، وبعدما لم

تجد مني رد توجهت ببصرها إلى (إيهاب) الواقف أمام فراشي، ينظر إليَّ بعينين جامدتين، وقالت:

- (إيهاب) كنت أريدك في أمر ما.

الفصل الخامس

بالرغم من عودة صوتي إلى، إلا أنني تظاهرت بعدم القدرة على الحديث، وكان هذا أفضل ما قمت به، فلو أنني أجبت لكنت ألقيت عليها وابلًا من الشتيمة واللعنات التي أعرفها وغيرها مما لا أعرفه، وبعدما لم تجد مني رد توجهت ببصرها إلى (إيهاب) الواقف أمام فراشي، ينظر إلى بعينين جامدتين، وقالت:

- (إيهاب) كنت أريدك في أمر ما.

****

دق قلبي بعنف حتى كاد ينفجر ألمًا، وأنا أراه يتوجه إليها ليخرجا سويًا من الغرفة بأيدي متشابكة، وأنا أتابعهما من فراشي الذي شعرت به نارًا تحرقني، وتحولني هشيمًا مندثر، رحل معها دون حتى أن يكلف نفسه عناء النظر إلى، أم أنه كان يخشى رؤيتي منكسرة، ذليلة بسببه؟

رحل معها وتركني مع آلامي أتجرع كؤوس العذاب، وأتناول سموم الآهات، تيبست مكاني وتسمرت عيناي على باب الغرفة المغلق دون أدنى حركة مني، أتأمله وبداخلي على يقين من أنه بعد لحظات سيفتح، ليظهر (إيهاب) خلفه.

ويعود مجددًا ينتشلني من عالم الأحزان هذا، ويلقي بي في عالمه بين ذراعيه، ويغمرني بدفئه وحنانه، وينتشلني من دوامة الضياع تلك، إلى بر الأمان، طال نظري إلى الباب المغلق، وطال انتظاري لفتحه، مر الكثير من الوقت لا أدري كم كان مقداره، وما زال ذلك الباب اللعين مغلق يأبى الانفتاح، كنت ما زلت مأخوذة بما حدث، يأبى عقلي تصديق أن (إيهاب) الآن مع غيري على الرغم من حبه لي.

أخذت الأحداث تتوالى مجددًا أمام ناظري مذ وطئت قدمي تلك المزرعة البغيضة، في حين كان قلبي يتمزق وجعًا

وأنفاسي تُحبس بين ضلوعي تأبى الخروج، وعقلي يصرخ بكل ما أوتيَ من قوة أن كفى، والغرفة تدور من حولي، وأنفاسي تتسارع تارة وتختنق تارة، وقلبي يأن من الوجع، وشراييني تكاد تفجر بداخلي، والفراش من تحتي يشتعل بنار الوجع، والألم برأسي يتفاقم، وأنفاسي تتسارع، الغرفة تدور، الفراش يزداد اشتعالًا، قلبي ينزف...

أنفاسي تُحبس، ألم رأسي يستمر في تزايده، الغرفة تدور،، عقلي يصرخ كفى، أضع يداي على أذنايَ بعصبية، ويستمر الدوار، ويزداد الفراش بناره، رأسي يكاد ينفجر، الغرفة تدور، شراييني تتسع حد التمزق، النيران تتأجج بأوصالي، أصرخ بأعلى صوتي :

- كفى!

ليُفتح الباب بقوة ويظهر من خلفه (ندى) مذعورة ومعها (بثينة) الخادمة، بعدما سمعا صراخي، وألقي بنفسي بين ذراعي (ندى) وأنا أنتفض ألمًا، وأخذت تهدئ من روعي، في حين أحضرت لي (بثينة) كوبًا من الماء، وقدمته لي بلهفة، أخذته منها وأنا أحاول السيطرة على رعشة يدي حتى لا يسكب الماء كله على الأرض، وتناولته متجاهلة تلك الغصة بحلقي، ورحت أنظم أنفاسي تحت أنظار (ندى) و(بثينة) الخائفة،

مسحت (ندى) وجهي بكفها، وسألتني بخوف حقيقي:

- هل أنتِ بخير الآن؟!

نظرت إليها مطولًا، يبدو سؤالها في غاية البساطة، إلا أن الإجابة في غاية التعقيد، فأنا لست بخير أبدًا، فروحي مجروحة، وجسدي منهك القوى، وقلبي مفجوع، وعقلي فقد اتزانه، أي خير هذا يا(ندى)؟ أي خير؟

نظرت إليها بإصرار لا أعلم حقًا مصدرة، لأجيب قائلة:

- لا، لست بخير يا(ندى)، ولكني أريد ذلك، أريد أن أكون بخير.

تهللت أساريرها، واعتدلت في جلستها بحماس هاتفة:

- حتمًا ستكونين بخير، وعودة صوتك بداية التحسن المنشود، أعدك بهذا.

سرت بقلبي رعشة أمل لم أدرِ مصدرها، أهو كونى أريد مواجهة أحزاني، أم كوني محظوظة لامتلاك ابنة عم مثل (ندى)، سألتها برجاء على الرغم من معرفتي للإجابة:

- هل تساعديني؟

لتجيب بصوت باكي وهي تحتضنني بين ذراعيها ثانيةً:

- بالطبع أساعدك، ولن أتركك أبدًا إلا وأنتِ في أفضل حالاتك

ثم عادت تنظر إليّ قائلة بجدية مصطنعة:

- ولكن عليكِ الاستسلام لي وتنفيذ ما آمركِ به.

اكتفيت بابتسامة خفيفة على شفتي، ونظرة امتنان حقيقية طلت من عينايَّ، فابتسمت لي ابتسامة بريئة تحمل من الود أعظمه، ثم نظرت إلى (بثينة) الواقفة جوارنا على بعد خطوتين من الفراش، ووجهت لها الحديث قائلة:

- أرجوكِ يا (بثينة) احضري لنا الطعام.

أومأت لها (بثينة) ثم رحلت بخفة، فقالت لي (ندى) بعزم:

- سنتناول هذه المرة الطعام سويًا، ولن أدع لكِ مجالًا للتهرب.

ابتسمت لها بوهن وأنا أراها تعاملني معاملة طفل صغير عنيد، فقلت بصوت يكاد يكون مسموعًا:

- سأذهب لأستحم أولًا.

لم أنتظر ردها فأزحت الغطاء من فوق قدماي، وأنزلتهما على الأرض ببطئ شديد، فقد شعرت بأنهما أثقلتا بسلاسل من حديد، ثم نهضت (ندى) وساعدتني على الوقوف، نظرت لها، وبابتسامة واهنة قلت:

- لا تقلقي أنا بخير، سأستحم بظرف دقائق وأستعيد نشاطي.

أومأت برأسها مبتسمة، وأفسحت لي المجال لأذهب إلى الحمام الملحق بالغرفة بعدما أشارت لي باتجاهه.

****

ارتميت بجسدي داخل حوض الاستحمام، بعدما تم ملؤه بالمياه الساخنة، التي شعرت بها تتوغل أنسجتي، لتخترق شرايين، وتنتشي بعضلاتي، أرخيت جسدي أكثر، وأنا أشعر بخدر المياه يتغلغل بأوصالي، زاد ارتخاء جسدي مع امتداد فترة بقائي داخل الماء، وبالرغم من طول فترة مكوثي إلا أن قلبي لم تطاوله المياه بعد، ظل مقبوض ومحاط بالوجع، وذلك الثقل فوق صدري أبى أن يبقى في مكانه دون حراك، غفلت عيناي أو هكذا أظن، فقد طالت فترة بقائي داخل الحوض عن الحد المعقول، لا أفعل شيء سوى النظر إلى الا شيء، النظر إلى نقطة وهمية في الفراغ أمامي، وكأن عقلي قد خلا من كل شيء، لا أعرف كم استمرت من الزمن على تلك الحالة، ولكن ما أعرفه أني مكثت الكثير، نهضت بتثاقل من لا يريد الانتهاء أو الخروج مطلقًا، فلولا صوت (ندى) الذي أتاني يعجلني بالخروج ما خرجت الآن، جففت جسدي، وارتديت ملابسي على عجلة، والقيت بشعري المبتل على كتفي، وخرجت وقطرات الماء تتساقط منه، معلنة احتجاجها عن سرعتي في الخروج دون تجفيفه، وجدت (ندى) تجلس على المنضدة وأمامها أنواع كثيرة من الطعام، لتلفح أنفى رائحته الشهية، ما أتعجب له حقًا هو أنني أشعر ولأول مرة منذ

دلفت إلى هنا بأن لدي حاسة شم طبيعية، ففي المرة السابقة التي أتوا لي فيها بالطعام، لم أشم تلك الرائحة الذكية التي تسللت إلى أنفي، وانتشت بذرات جسدي، لتثير معدتي الخالية من الطعام، جلست بجوار (ندى) ولكنى هذه المرة لم أنتظر منها أن تحثني على تناوله، بل أني شرعت في الأكل بشهية مفتوحة، كانت كل لقمة تستقر بمعدتي تشعر بوحدتها، لآتي لها بالمزيد.

واستمريت هكذا آكل بنهم شديد وكأنها المرة الأولى في حياتي أتناول فيها طعامًا، حتى أني شعرت بنظرات (ندى) المتعجبة تلحقني وأثناء تناولي للطعام، لا أنكر أن جزءًا كبيرًا من قوتي الجسدية شعرت به يعود إليَّ تدريجيًا، وكلما زادت قوتي زاد حماسي، وصرخ بي عقلي أن " عودي يا فتاة إلى قوتك، لا تدعي لأحد أن يقوم بكسرك، حتى وإن كان أكثر من تحبين على وجه الأرض، كوني قويه لمواجهة أحزانك، كوني شجاعة لتحاربي من أجل عودته، لتحاربي من أجله، من أجل (إيهاب)"

نعم، لن أستسلم لضعفي بعد الآن، لن أغرق في وحل الأحزان هذا، سأنتشل نفسي منه، وسيكون أكبر هدفي هو إعادتك يا (إيهاب)، مهما كلفني الأمر، فأنت لي وأنا لك

ولا مكان لتلك الـ(سارة) بيننا، فقط أنا وأنت.

أنهيت طعامي الذي لم أترك منه شيئًا، ولا أدري هل تركت شيئًا لـ(ندى) تأكله، أم أنني لم ألاحظ ذلك أثناء تناولي للطعام؟ حقًا لا أتذكر، نظرت إليَّ بعينان تشعان سعادة، وابتسامة عريضة زينت شفتاها، وقالت:

- أنا سعيدة جدًا، لتناولكِ الطعام.

قلت وأنا أضع يدي على معدتي المنتفخة:

- كنتُ جائعه جدًا.

فضحكت بشدة وهي تقول:

- هذه بوادر التحسن إذًا.

ابتسمت لمرحها وقلت:

- معكِ حق، ثم أكملت وأنا أتثائب:

- ما ينقصني الآن حقًا هو قليل من النوم.

قالت مشاكسة:

- أو كثير منه لا يضر.

تأملتها بصمت وأنا أتساءل بداخلي عن هذا الكم الهائل من الحب الذي تحمله تجاهي، فقلت بطريقة مفاجئة:

- أتعلمين أنني محظوظة بكِ؟

سألتني مدهوشة:

- بي أنا؟ لماذا؟

- نعم محظوظة بكِ، لأني أملك شخصًا يحبني بكل هذا القدر، دون حتى أن يتعامل معي، ويعرفني جيدًا.

بابتسامة هادئة علقت:

- صدقيني لا أحتاج لأتعامل معكِ كي أعرفك، فأنا أعرفكِ حق المعرفة.

سألتها بترقب:

- ولكن كيف لكِ أن تعرفيني دون أن تتعاملي معي.

قالت دون تفكير:

- لأن (إيهاب) قد تعامل معكِ ولطالما أخبرني عنكِ.

قرأت على ملامحها علامات الندم بعدما تسرعت فيما قالته، اعتقادًا منها بأنها أشعلت جرحًا نائمًا، ولكن ما لم تكن تعلمه أن ذلك الجرح لم يكن قد خمد بعد.

أخرجتها من دوامة الندم التي ألقت بنفسها بها وقلت:

- سأخلد إلى النوم.

فعلقت:

- وأنا سأذهب لأكمل دراستي، نومًا هانئًا.

بابتسامة وهانة قلت:

- شكرًا لكِ.

غادرت الغرفة بعدما اطمأنت إلى اندساسي في السرير تحت الغطاء، أما أنا فما إن وضعت رأسي الثقيل فوق تلك الوسادة ناعمة الملمس، حتى ألقت بي في عالم اللاوعي.

****

واقفة أتأمله كعادتي، وأتابع موجاته المضطربة، وقدماي تغوصان في رمال شاطئه، وخصلات شعري تتطاير خلفي بعشوائية مع نسمات الهواء البادرة، لأشعر بها تتغلل صدري، وتملؤ رئتاي بيود البحر، فتنتعش روحي، وتسري رعدة خفيفة بأوصالي، التفت حين أتي صوته إلى صراخًا:

- أيتها المجنونة.

كانت الابتسامة تعرف طريقها إلى ثغري، وتراقص قلبي سعادة حين رأيت (إيهاب) قادمًا نحوى ويحمل في يديه كوبين من المثلجات، فأجبت بدلال حين وقف بجواري لاهثًا:

- أتنعتني بالمجنونة؟ هل حقًا تراني هكذا؟

فأجاب وهو يمد إليَّ كوب المثلجات:

نعم أراكِ هكذا، ولم أرَ من هي في جنونك! -

قلت وأنا أتصنع الحزن:

- هل كل هذا لأني أردت الجلوس على شاطئ البحر قليلًا؟!

قال وهو يتناول من المثلجات:

- لا أنا أتحدث في جميع الأحوال وليس اليوم فقط.

لم أستطع منع نفسي من الضحك وأنا أراه يتحدث بجدية بينما يتناول المثلجات بنهم، فقلعت باستنكار:

- ما هذا؟ لمَ أحضرت لنفسك المثلجات، ألم تقل بأن الطقس بارد لا يتلاءم مع تناول المثلجات؟

قال وهو ينظر أمامه وما زال يتناول من المثلجات:

- لا دخل لكِ.

ضحكت بكل ما أوتيت من قوة حتى شعرت بطيف دمعة تتراقص في مقلتي، ثم شرعت أتناول من المثلجات، بينما ساد الصمت إلا من صوت الأمواج المندفعة باتجاهنا، وبعد لحظات كان قد انتهي فيها من تناول المثلجات، ثم قال بصوت هادئ رزين:

- انظري يا (ملك) إلى السماء.

فرفعت رأسي بتلقائية نحوها، وأنا أتوقع احتوائها على النجوم التي لطالما تأملناها معًا، ورسمنها بها العديد من الأشكال الخاصة بنا فقط، لأجدها خالية تمامًا، فنظرت إليه بحيرة، ليبادرني متسائلًا:

- كيف ترينها؟

هززت كتفي وقلت بلا مبالاة:

- فارغة.

نظر إلى دفعة واحدة، وتساءل وهو يرفع حاجبيه دهشة:

- فارغة! أهذا وصفكِ لها؟!

فتساءلت وقد تزايدت الحيرة من سؤاله العجيب هذا:

- وما هو وصفك أنت الذي تراه مناسبًا؟

عاود النظر إلى السماء مرة أخرى، بينما استمريت أنا أتأمله كما لو كنت أراه للمرة الأولى، ذلك الرجل يأسرني بكل ما فيه، وبكل حالاته حتى الغريبة منها، والتي تتجلى أمامي الآن، قال بعدما سحب نفسًا عميقًا من صدره:

أراها صافية تماما. -

صرخت فيه قبل أن يكمل باستنكار:

- ماذا؟

فنظر إليَّ بتعجب وعلامة استفهام كبيرة تظهر على محياه، فأردفت بنفس نبرة الاستنكار:

- أتتعجب من وصفي لها بفارغه، لتقل لي أنت صافية!، أين الفرق يا هذا؟

تلقى سؤال بدون أي ردة فعل، ثم نظر للسماء مجددًا، وقال بهدوء كما لو كان في عالم آخر:

- هناك فرق كبير عزيزتي.

فكونها صافية لا يعني بالضرورة أن تكون فارغة - ثم أشار بيده لأعلى نحو السماء - هل تظنين أنها حقًا فارغة؟ لا بالطبع فهي تحوي من المجرات ما لا تراه أعيننا فحسب،

وعلى النقيض عزيزتي، فكون الشيء فارغ لا يعنى كونه صافي، فها هي السماء تظهر لكِ فارغة من النجوم إلا أنها في حقيقة الأمر تحتوي عليها، وأنت فقط من لا يستطيع رؤيتها.

نظر إليَّ بفارغ الصبر، وسأل بضيق:

- هل عرفتي ما أقصده بالفرق بينهما، أم أشرح مجددًا؟

لم أستطع أن أخفى البلاهة التي ظهرت على وجهي، ولكنى هززت رأسي بسرعه وقلت:

- فهمت....فهمت.

تحرك برأسه مرة أخرى نحو السماء، ثم أردف وصفه لها:

- إني أراها صافية تمامًا مثلك.

ثم نظر إليَّ بغتة، لأجد قلبي يقع بين قدمي، ووجنتاي تشتعلان خجلًا، في حين تظاهرت بالتماسك لأترك له المجال لإنهاء حديثه الذي أخذ منحنى يروق لي، فأكمل وهو ينظر مباشرة في عيناي، لأغرق أنا في بحور عيناه، قائلًا:

- أراها صافية كما في صفاء روحك، واسعة مثل سعة صدرك، هادئة مثل هدوء جمالك، شامخة مثل شموخ كبريائك، عالية مثل علو مكانتك في قلبي.

كان قلبي يدق بجنون، وضعت يدي على صدري أرجوه بأن يكف عن العبث، إلا أن شفتاي لم تتوقفا عن عبثهما، فأظهرا ابتسامة واسعة

عريضة، لم أستطع إخفائها، فقلت وأنا أحاول أن أداري خجلي: ولكنني لست في كل الأحوال صافية.

اتسعت ابتسامته، والتفت بكامل جسده نحوي، فتساءل وهو يعقد يداه أمام صدره:

- حقًا، وما هي الأحوال التي تتخلين فيها عن صفائك إذًا؟!

نظرت إلى البحر، وقلت بينما أضيق مقلتاي علامة التفكير:

- لا يتبادر إلى ذهني الآن حالات معينة، ولكنني أستطيع أن أستنبط أحوالًا لن أكن فيها صافية أبدًا.

قال وهو يداعب أنفي بطريقته التي اعتدتها منه:

- وما هي إذًا؟!

أجبت وأنا أنظر له بتوعد:

- في حين مثلًا تحبك امرأة غيري.

ضحك ملئ شدقيه، ويبدو أن الكلام أسعده، فقال متسائلًا:

- وما ذنبي أنا إن وقعت إحداهن في غرامي؟ من المفترض أن يكون ما يهمك حقًا هو كوني لا أهتم لأحد غيرك!

قلت بتحدٍ وإصرار:

- لا يا عزيزي، فأنت مسكين لا تعرف كيد المرأة، وما تستطيع فعله حين تقع في غرام أحدًا، تكن على استعداد لفعل أي شيء فقط لتكون بجواره. وأنتِ ماذا ستفعلين إن أحبتني إحداهن؟-

ألقيت سؤالك واستقبلت أنا به نبرة سعادة خفية، فمن الواضح لي أن غيرتي التي ظهرت في حديثي أسعدتك وبشده، أجبت وأنا أتجاهل فرحك هذا قائلة:

- سأحارب العالم أجمع إن تطلب الأمر لتبقى لي وحدي.

****

بين الواقع والسراب أسمع اسمي يُنادى من بعيد، أبحث في غياهب الظلمات عن مصدره، يتردد صداه بأذنايَ ليحفز عقلي للانتباه، أتلفت حولي في ذلك الظلام الدامس الذي يحاوطني، واسمي ما زال يتردد بالأركان، ليظهر من بعيد بقعة ضوء دائرية، أركض نحوها واسمي يتردد أكثر، وبصوت يزداد علوًا مع اقترابي، أصبح على بعد خطوات من تلك البقعة المضيئة، لأرى (ندى) تقف داخلها وتنادي باسمي،

ثم أفتح عيناي بتثاقل لأجد أنني ممددة على فراشي، ووجه (ندى) المذعور أمامي، تنادي باسمي فزعة، وما إن رأتني أستيقظ حتى زفرت براحة، وقالت بصوت متعب:

- ما كل هذا النوم يا (ملك)؟ قلقتني عليكِ.

اعتدلت في جلستي، وعظامي تكاد تفتك من الألم، ورأسي كما لو أنه خُدر بخدر النوم، ولم يفق بعد.

سألتها:

- كم من الوقت استغرق نومي؟

أجابت:

- لقد نمتِ يومًا كاملًا!

بدهشة سألتها:

- كيف؟

لتجيب مؤكدة:

- نمتِ أمس قبيل غروب الشمس، وأيقظتك الآن، وها هي الشمس تميل نحو الغروب.

لم أكن أصدق هذا، ولم أشعر إطلاقًا بأنني نمت ليومًا كاملًا، تراني أهرب من الواقع بالأحلام؟

ولكن إن هربت من واقعى، من سيرد إلى (إيهاب) إذًا، إن لم يكن أنا؟

وبإصرار شديد سألتها، وأنا أمسك برأسي الذي لا يغادره الألم:

- هل لديكم أية دواء لوجع الرأس؟!

أجابت وهي تنهض متجهه نحو الدولاب الذي يحمل ملابسي، وفتحته على مصرعيه، ثم التفتت إليَّ قائلة:

- نعم لدينا، ولكن يجب أولًا أن تنهضي وترتدي ملابس جيدة، وتتناولين معنا العشاء.

بالرغم من كونى أخذت قرار بالتمسك بـ(إيهاب)، وفعل كل ما بوسعي وعدم التنازل عن كونه بجواري، إلا أنني حين جاءتني الفرصة، شعرت بضعفي المكنون داخلي يتسلل من مكمنه وينتشي بأطرافي، كنت أخشى

مواجهته مرة أخرة، كنت أهاب رؤيته مع امرأة غيري، ترى كيف سأتعامل مع هذا الوضع؟ بالطبع لن يقدر قلبي على تحمل هذا أخرجتني (ندى) من شرودي، وكأنما كانت تسمع وتعي جيدًا ما أفكر به، جلست بجواري وقالت وهي تدقق النظر في عيني، كأنما تريد أن تنقل إليَّ القوة خلالهما:

- أعلم جيدًا مدى حبك لـ(إيهاب)، وأعلم ايضًا كم هو من المميت رؤيته مع أخرى، ولكنني أقسم لكِ أن قلبه لا يحمل من النساء سواكِ.

انهارت قلاع القوة التي بنيتها لنفسي، وخار سور كبريائها العالي، وأنا أعلق بصوت متقطع وأنا أحاول جاهدة السيطرة على دموعي وحبسها بين جفوني:

- أعلم أنه يحبني، ولكن ما قيمة هذا الحب وهو لغيري؟ لم إذًا ذهب لأخرى إن كان يحبني حقًا؟ لا أجد له مبررًا منطقي لما فعله.

اقتربت مني أكثر وشحذت من صدرها نفسًا عميقًا، وكأنها تبحث عن الكلمات المناسبة لتترافع عن أخيها، وقالت:

- لا تفكري هكذا، ولا تفكري بالماضي، ما حدث قد حدث وانتهى الأمر، لقد أخطأ أخي في لحظة غضب منه، وبسببه أنتما الاثنان تعانيان الآن، ولكني أريدك أكثر قوة، وأكثر تفاؤل، وتتركي الأمور للقدر يرتبها هو، وتكوني على ثقة بأنكما كتبتما لبعضكما.

نظرت إليها بأعين منهكة، وسألتها كمن يتعلق بقشة أمل:

- هل تظني هذا حقًا؟!

لتومئ برأسها بحماس، وتجيب:

- بالطبع.

لوهلة نسيت ألم رأسي أو تناسيته، وكعادتها عرفت كيف تدب شعاع الأمل في صدري، وجدتني أحتضنها بشدة وأهمس بأذنيها:

- دمتِ لي سندي.

لتضحك بعفوية، وتزيحني من صدرها لتقول بجدية مصطنعة:

- هيا إذًا وكفاكِ دلالًا، اذهبي لتستحمي وترتدين ثيابك لتهبطي إلينا، فلم يتبقى شيء على موعد العشاء.

سألتها بفزع:

- ألن تنتظري لنهبط سويًا.

ضحكت وهي تجيب:

- أنتِ في منزل عمك، لا تحتاجين إلى مرشدًا بالطبع.

أومأت لها برأسي دون أن أنبس ببنت شفة، وتابعتها وهي تخرج من الغرفة بخفة ومرح، تمامًا مثلما تدخلها،

أزحت الغطاء من فوقي بتكاسل، وبعد مفاوضات مع نفسي استجمعت قوتي ،ونهضت متجاهلة ذلك الألم الشديد الذي بدأت أشعر أنه جزء لا يتجزأ من تكويني، دلفت إلى الحمام واستحممت بسرعة حتى لا أدع لعقلي مجالًا للتفكير في أي شيء، ثم توجهت إلى الغرفة وإلى الدولاب خاصة، وقفت أمامه وحباب المياه تتساقط من شعري المبلل، وأخرجت

بنطالًا جينز ارتديته، ثم تناولت بلوزة سوداء أمامي ذات أكمام طويلة، ومزينة ببعض الورود الصغيرة الملونة عند طرف الأكمام، وارتديتها على عجل، ثم جلست أمام المرآة دون أن أنظر إلى نفسي بها، وشرعت في تجفيف شعري

ثم قمت بتمشيطه ورفعه لأعلى بدبوس واحد، وما إن انتهيت حتى رفعت نظري إلى تلك التي تجلس في المرآة أمامي، لأتفاجأ بمظهري كما لو أني لم أنظر لنفسي منذ قرون، صدمني وجهي الشاحب شحوب الأموات، وأرعبتني تلك الهالات السوداء المتكدسة أسفل عيوني، وأحزنني لون شفتاي كما لو أنهما شفاه لشخص قد فارق الحياة، وهربت منها الدماء، تيبست مكاني للحظات وأنا أتأمل شكلي وما آل إليه، لقد بدوت أكبر من عمري بعقود، فأنا ما زالت في الثالثة والعشرين، بيد أن من يراني يحكم بلا أدي تردد أنني امرأةفي الأربعين من عمرها، مددت يدي إلى دبوس شعري وأزلته، لأترك المجال لشعري الناعم الطويل حالك السواد بأن ينسدل بحرية فوق كتفاي، وكأنني أذكر نفسي بأنني ما زلت أحمل من معالم الجمال شيئًا، دققت النظر إلى نفسي بعدما أحاط الشعر وجهي وأوضح معالمه الحسناء، ولكنني سرعان ما رفعته مرة أخرى، وثبته بالدبوس، فلا منظر وجهي ولا ملابسي مناسبه لتركه حرًا ليزين ظهري، أزحت نظري من على وجهي بألم، وبداخلي يصرخ لما آل إليه مظهري، توجهت ناحية الباب، وأنا أشعر بأنني حين أفتحه سأفتح لنفسي عالمًا

آخر من المعاناة والعذاب، سحبت نفسًا عميقًا كمن يستعد لخوض حرب ما

وفتحته بيد مضطربة، ثم خرجت إلى عالم ينتظرني فيه الكثير مما لم أحياه بعد، هبطت الدرج بخطوات مترددة، متوجسة، مضطربة، كنت أشعر أنها المرة الأولى التي أرى بها ذلك البيت الشاسع، فالطابق الثاني كان يتكون من ممر طويل يحمل العديد من أبواب الغرف، أما الطابق السفلي هذا فكان تكون من صالة بالغة الاتساع، يقبع في منتصفها عمود ضخم زين بالعديد من الزخارف، وعلى يمينه وجد صالون فخم، ذو هيبة كما لو كان قد خصص لملوك يجلسون به، وعلى يسار العمود توجد سفرة طعام غاية في الكبر، كما لو أنها صنعت خصيصًا لتناسب الولائم العملاقة، وكان يقبع بجوار السلم مكتبة كبيرة، تحمل آلاف من الكتب مختلفة المجالات، لولا أنني وجدتهم جميعًا يجلسون بالصالون وينظرون إلى بفضول لشديد، لكنت توجهت على الفور إليها، لا لأقرأ فأنا لم أحب القراءة يومًا على عكس والدي و(إيهاب)، بل لأخمد فضولي هذا الذي يثيرني للعبث بالأشياء المنظمة كما لو أنه يكره أن يدع شيئًا مرتبًا،

توجهت إليهم بخطوات متباطئة، وأنفاس مضطربة

لأتفاجأ بوجود أوجه جديدة على ناظري، واختفاء أكثر وجه أعشق ملامحه في هذا المنزل، لا أنكر أنني بالرغم من الغصة التي شعرت بها حين لاحظت اختفاء تلك الشقراء أيضًا، إلا أنني شعرت ولو بالقليل من

الارتياح لكوني لا أراهما سويًا أمامي، فمهما كان الألم والوجع الذي أشعر به، إلا أنه سيتفاقم إذا رأيتهما معًا أمام ناظري.

أفاقني صوت عمي وهو يرحب بي، بعدما لاحظت أنني لم أنطق بكلمة لأحييهم، وقال لي وهو يشير إلى رجل بجواره:

- هذا يا (ملك) (مجاهد عزمي) شريكي في هذه المزرعة.

كان يبدو في عقده الخامس، ملامح الطيبة والحنان تظهر جلية على وجهه، بالرغم من التجاعيد التي غزته إلا أنها لم تفلح في أن تخفى طيبته، بالرغم من جلوسه إلا أنه ظهر واضحًا وجليًا قصير القامة، وكان يقرب إلى الامتلاء، وبابتسامة بشوشة صادقة علت وجهه، رحب بي قائلًا:

- سعدت برؤيتك يا (ملك).

أومأت إليه برأسي، وبابتسامة شعرت أنها بلهاء إلى أبعد الحدود، وعلقت:

- شكرًا لك.

ثم أشار إلى شاب يقبع بجواره، شعرت أنني أنظر إليه لأول مرة، وقال لي وما زالت الابتسامة تزين وجهه:

- وهذا (نادر) ابني.

ما إن قال جملته، حتى نهض (نادر) من جواره، واقترب مني بخطوات رشيقة، ثم مد إليّ يده، وابتسامة واسعة تتزين على شفتيه أظهرت غمازة في أحد خديه، وقال بصوت مرح، يمتلئ بالحماس:

- تشرفت بلقائك آنسة (ملك).

نظرت إلى يده الممدودة نحوي بتردد، ثم مددت يدي بارتباك واضح، ظهر جليًا في رعشة يدي التي لم أفلح في إخفائها، ولكنها هدأت حين استقرت يدي بين أصابعه، شعرت بحماس لا أعلم مصدره وهو يهز يدي بقوة، كما لو كان يسلم على أحد من أعز أصدقائه، بحثت عن صوتي وقلت بصوت مختلف عني:

- وأنا أيضًا.

الفصل السادس

اتسعت ابتسامته وزادت غمازته في وضوحها، ثم عاد بنفس خطواته الرشيقة إلى مقعده، وجدت نفسي أتأمله فضولًا، وتعجبت كيف لهذا الرجل ذو القامة الفارهة تلك بأن يكون والده قصير القامة هكذا، لابد وأن والدته طويلة القامة إذًا.

ارتسمت ابتسامة سخرية على شفتيَّ، حين لاحظت أن ذلك الرجل قد أخذ من انتباهي حد التفكير في توارثه لجينات الطول، ولكنني تابعت تأملي له من طرف عيني، فقد كان جذابًا إلى حد كبير بابتسامته الخلابة تلك التي تزين ثغره، وبشخصيته المرحة التي تظهر جليًا لأى شخص يراه وحضوره الواثق، فقد كان يتحدث بمرح وفي عيناه الضيقتان هاتين نظرة ثقة جذابة.

أخذوا جميعًا يتبادلون الحديث بينهم، تتخللها النكات والضحكات، اكتفيت بابتسامة باهتة علقتها بشفتاي، بينما كان عقلي مع ذلك الغائب، وفى غمرة حديثهما جاءت (بثينة) تعلن عن انتهاء تجهيز الطعام، ليقفوا جميعًا ويتوجهون إلى السفرة المستقرة على الجانب الأخر من هذا العمود القابع في المنتصف، كانوا يتوجهون واحدًا تلو الأخر وأنا واقفة متيبسة بمكاني أنظر إلى الباب المغلق أتساءل، ألن يظهر (إيهاب) من خلفه، ليأكل معنا؟

شعرت بمن يقترب مني، التفت إليها وأنا على يقين بكونها (ندى) تستحثني على الذهاب معهم بعدما غادروا جميعًا وبقيت أنا، إلا أنني صُدمت حين وجدته أمامي،

كان ذلك المدعو (نادر)، ينظر إليَّ بابتسامته المرحة، وغمازته تطل بوضوح على خده، ثم سأل:

- من تنتظرين؟!

تعجبت لسؤاله، وما زاد تعجبي حقًا هو كونه يسأل بنبرة تحمل الكثير من اليقين، كما لو أنه قرأ أفكاري، أجبت بصوت متردد بدا كما لو كان صوت امرأة غيري:

- لا أحد.

رفع حاجبيه علامة عدم التصديق، وقطب بين جبينه وبدا لي أنه انزعج من إجابتي، ثم أنحنى نحوي قليلًا وغمز لي وقد عاد إليه مرحه في ثوانٍ:

- ولكن لمَ الكذب؟!

أجبت بسرعة لأنفي التهمة عني، مع كوني أعلم جيدًا بأنه محق:

- أنا لا أكذب.

وضع يده في جيبه، ورمقني بنظرة ماكرة، وقال بثقة:

- سأحاول تصديقك.

شعرت بالدماء تغلي برأسي، وبدأ الغضب يتأجج داخلي، ما شأنه هو إن كنت أنتظر أحدًا أم لا؟! بل ما شأنه بي؟

أغضبني تطفله، بل لا أدري صدقًا، أكان ما أغضبني هو تطفله أم كونه على حق؟

سبقته إلى المائدة وأنا أرمقه بغضب، وزاد غضبي حين لمحت ابتسامته الواثقة، فزفرت بضيق وأنا أتخذ موضعي بجوار (ندى) التي سألتني مستفسرة:

- أهناك ما يزعجكِ؟!

عادت بسمتي الفاترة مرة أخرى وأنا أحرك لها رأسي نافية دون أن أنطق بكلمة، فابتسمت بدورها وأشارت إلى الطعام أمامي بعينها:

- هيا تناولي الطعام إذًا، فسيبرد.

قالت جملتها بالتزامن مع جلوس (نادر) أمامي مباشرة، بينما كان ينظر إليَّ بنفس ابتسامته الواثقة المستفزة تلك، فقطبت بين جبيني وأزحت نظري عنه، وشرعت أتناول الطعام.

لم يكفوا عن الثرثرة أثناء تناولهم للطعام، شعرت بالشفقة حقًا ناحية أفواههم، فكيف لها أن تؤدي وظيفتان في آن واحد! المضغ، والكلام

بينما كانت شهيتي مسدوده، فتناولت القليل وشرعت أعد حبات الأرز في الطبق أمامي، فقفزت ابتسامة على ثغري حاولت جاهدة إخفائها ولكن محاولاتي باءت بالفشل، فتركتها ترقد فوق شفتاي بسلام، بينما كانت ذكريات عد الأرز مع (إيهاب) تقفز في ذاكرتي، فكانت تلك عادته التي انتقلت إلى من ضمن عاداته الكثيرة التي أخذتها منه.

فكنت إذا وضعت له الطعام، وأجبرته على تناوله وهو غير جائع، يشرع في عد حبات الأرز، وكان ذلك يغضبني بشدة، ودائمًا ما أصرخ فيه متسائلة عن الحكمة في شيء كهذا، ليرد عليّ ببرود قاتل:

" لا شيء سوى مرور الوقت في حين تنتهين أنتِ من تناول وجبتك."

كانت جملته هذه تثير سخطي واستنكاري، إلا أنني الآن أقوم بما كان يفعله، ولنفس هدفه، مرور الوقت إلى حين ينتهون من طعامهم ومن ثرثرتهم التي أظنها لن تنتهي.

مرت وجبة العشاء بسلام، فنهضنا جميعًا وذهبت (نجوى) لإحضار بعض الحلوى التي أعددتها بنفسها، بينما توجهت (ندى) إلى غرفتها بعد أن أخبرتها (بثينة) بأن هناك من ينتظرها على سماعة الهاتف، وبقى عمي وشريكه مجاهد بصحبة (نادر) يتحدثون بشأن أعمالهم وشراكتهم بالمزرعة، لم أفهم شيء من حديثهم، ولم أسعَ إلى فهمه من الأساس فلا شيء في هذا يعنيني، كان حديثهم مملًا رتيبًا، لم أكن على استعداد للمكوث معهم أكثر من هذا، بحثت عن حجة لأتركهم وأرحل، فقفزت في رأسي فكرة الخروج إلى الحديقة قليلا لاستنشاق بعضًا من الهواء النقي، فراقت لي الحجة

حيث كنت أحتاج لهذا حقًا، فتململت في مكاني، واستأذنت عمي بصوت هامس يكاد يُسمع، كما لو كنت طفلًا يطلب من وليّ أمره ما يخشى عاقبته، فوافق على الفور قائلًا بوقار كثيرًا ما يشبه وقار أبي:

- بالطبع بنيتي، فلتتفضلي.

****

كان الجو هادئ مسالم، يحمل بين طياته نسمة برودة خفيفة، فسحبت نفسًا عميقًا أملأ به صدري، فتنتعش رئتاي بهواء نقى منعش، فشعرت بخلايا رأسي ترتخي بهدوء بعد أن وصل لها كمية لا بأس بها من الأكسجين، مسحت المكان حولي بنظرة خاطفة سريعة، كانت الحديقة ذات مساحة شاسعة، لا تكاد عيناي تميز أولها من آخرها، بل إن نظري لم يصل إلى البوابة الرئيسية التي دلفت منها يومًا بصحبة المحامي (منصور) حين كنت غارقة بمنامي، لمحت منزلًا أخر في الناحية المقابلة لم ألحظه من قبل يكاد يكون في نفس مساحة منزل عمي، أو أصغر قليلًا، لا أستطيع التحديد فقد كان على مسافة كبيرة إلى حد ما، وقبل أن أستكشف ما تحويه الحديقة من أشجار، أتاني صوت من خلفي ميزته جيدًا:

- ذلك المنزل (ملك) لنا، أسكن فيه مع أبي.

التفت إليه وأنا أعقد يداي أمام صدري في غير ارتياح، فوجدته ينظر إليَّ بابتسامة خفيفة أظهرت غمازته بشكل طفيف، وأردف:

- لا أعرف إن كنتِ تعرفين شيئًا كهذا؟

نظرت أمامي بغير اكتراث، ورفعت كتفاي علامة الجهل فعلقت:

- لم أكن أعلم.

مرت لحظات ثقيلة أظن فيها بأنه قد شعر بغضبي منه، فقال بهدوء:

- أنا آسف، لم أقصد إغضابك حين قلت أنكِ تكذبين

نظرت إليه دفعة واحدة، فلم أتوقع أن يعتذر لي وهو بالكاد يعرفني، بل لم أتوقع أن يلاحظ من الأساس غضبي بسبب ما قاله لي، فأردف وقد لاحظت الصدق يظهر جليًا في عيناه وهو ينظر إليّ:

- ما في الأمر أنني لاحظت شرودك طوال فتره جلوسك معنا، وكأنك في عالم آخر، كان جسدك حاضرًا إلا أن عقلك كان غائبًا ... وحين وقفتِ شاردة تنظرين إلى الباب كمن يترقب حدوث شيء خلفه تيقنت بأنكِ تنتظرين أحدهم، وبسبب فضولي سألتك.

تنهد كمن يزيح حملًا ثقيلًا على صدره، فركز نظراته صوبي، وقال بصدق:

- أتمنى أن تسامحيني على تطفلي.

حدقت فيه بدهشة، ولمست الصدق واضحًا جليًا بكلماته ونبرة صوته، وزاد تعجبي من إصراره على أن أسامحه، فالأمر لم يكن يستحق كل هذه التبريرات، ابتسمت له بصدق، وقلت بصوت أصبح يشبه صوتي:

- لا عليك، فأنا لست غاضبة.

فانحنى نحوي، وغمز لي بعينه كالمرة السابقة، وسألني بمرح:

- أحقًا؟

أجبت بعد أن اتسعت ابتسامتي أكثر:

- حقًا.

تعجبت وأنا أراه يمتلأ بحماسه شدقيه، وهو يشير لي نحو منزلهم، ويتحدث إليَّ بسرعة كما لو كان يتسابق مع أحدهم:

- انظري هذا منزلنا كما أخبرتك، يبتعد عن منزل عمك بقليل، ويقبع معه في نفس المكان، وتلك الخضراء الواسعة هي مزرعة فواكه نشترك فيها مع عمك، وأنا أعمل فيها مهندسًا زراعي، فأنا لا أرى أي شيء يمنع أن نكون صديقين.

اتسعت عيناي حتى شعرت بهما سينخلعان من مكانهما، وأكاد أجزم بأن حاجباي التزقا بمقدمة رأسي، وأنا أتطلع إليه وهو ينتزع يدي التي كنت أعقدها أمام صدري، ليضع كفي بكفه، وكأنه يقول لي ستكونين صديقتي شئتِ أم أبيتِ، لم أنبس ببنت شفة في حين استمريت بالتحديق فيه، فانحنى نحوى، وكانت كفي لا تزال في كفه، وحرك رأسه بتساؤل:

- لم تخبريني رأيك.

فأجبت بهدوء مخالف تمامًا لحماسه المتقد:

- بالطبع، فهذا شيء يسعدني.

قال بمرح وهو يهندم من هيئته:

- صدقيني لن تندمين، فأنا صديق مخلص لن تجدي منه على الإطلاق.

فعلقت على كلامه:

- ومرح أيضًا.

قال بزهو مصطنع:

- نعم، وذو ظل خفيف، أسعدني أنكِ لاحظتِ هذا.

ابتسمت لطريقته في الحديث، وقلت:

- لكني لست هكذا، أخشى ألا يروق لك مصادقتي.

نظر أمامه ومط شفتيه وبدا كما لو كان يفكر في أمر هام، ثم نظر إليَّ بغتة وضيق عيناه قليلًا، ثم علق بصوت بدا أكثر رزانة:

- لا أظن هذا أبدًا.

سكت قليلًا وهو ينظر في نقطة خلفي كما لو كان يتذكر شيئًا، ثم أردف:

- لا أظن أنك لست مرحة، فعيناك رغم ما بهما من ألم وجرح لم يندمل بعد، إلا أن بها بريق يكشف عن مرح يقبع في زاوية ما من زوايا نفسك، وقد أخفاه ضعفك واستسلامك للوجع.

صمت وأبت الآلام أن تصمت، كانت كلماته مثل نسمة الهواء التي أشعلت حريقًا بدا وكأنه انطفأ، ولكنه لم يكن، هاجت أحزاني التي كنت أخمدها داخلي دفعة واحدة، وزاد قلبي انقباضًا، لم أستطع منع تلك الدمعة التي قفزت إلى مقلتي، فأخذت تتأرجح بين جفني، تنتظر وقت خروجها، ولكن لا لن أبكي أمامه، لا أريده يظن بي الضعف والاستسلام كما يقول، سأثبت له العكس، ولن أبكي مهما حدث.

لا أعلم إن كنت تحدثت إلى نفسي بصوت عالٍ، أم أنه هو من يمتلك قدرة خارقة في قراءة الأفكار، حيث وجدته ينتقل بنظره إليَّ قائلًا:

- لِمَ تمنعين نفسك من البكاء؟! اتركي لدموعك العنان، واخرجي ما في داخلك، فالبكاء أمام الغير ليس ضعفًا كما تظنين.

كانت جملته هذه القشة التي قسمت ظهر البعير، فأجهشت بالبكاء بدون مقدمات، وأنا أخفي وجهي بين كفاي، وهو يقف إلى جانبي دون أن ينبس ببنت شفه، وبعد فترة أنهيت بكائي وجففت دموعي، لأجده يقدم لي منديلًا ورقيًا، تناولته منه دون أن أرفع نظري إليه، وقلت له بصوت هامس:

- شكرًا لك.

فأجاب بجدية بالغة:

- لمَ الشكر؟! فهذا دين عليكِ.

نظرت إليه بتساؤل وقلت:

- لا أفهم ما تقصد.

فأشار إلى يدي، وقال:

- المنديل، لا تشكريني عليه فهو دين وسآخذه منكِ لاحقًا.

نظرت إلى المنديل في يدي ثوانٍ أستوعب ما قاله، ثم ما لبثت أن انفجرت في الضحك، وسالت دموعي أكثر، صعب على تميز إن كانت من أثر البكاء أم الضحك، فجففتها مرة أخرى بواسطة المنديل، ثم نظرت إليه بامتنان فلا أذكر متى آخر مرة ضحكت فيها من أعماقي، ثم مددت له المنديل قائلة:

- ها هو ذا خده.

فأجاب بطريقة طفولية:

- لا إنه مبلل بدموعك وأنا أريده جافًا تمامًا.

اكتفيت بالضحك ولم أسايره مزاحه، فقال كما لو كان تذكر شيئًا:

- انتظري لحظة، أريد أن أسألك سؤالًا مهمًا.

الفصل السابع

نظرت إليه بفضول، فتساءل وهو يضيق عينيه، وبلهجة ساخرة ألقى سؤاله:

- من قال لكِ أن كوني مرحًا، يحتم عليَّ مصادقة المرحين فقط، أهو قانون جديد في الصداقات؟

لم أتمالك نفسي وعادت ضحكتي مرة أخرى وأنا أفهم ما يشير إليه، فقلت في دفاع عن نفسي حتى لا يظن بي السذاجة:

- لم أقصد هذا، أنا فقط أخشى أن تمل مصادقتي.

قال وغمازته تزين وجهه:

- بضحكتك الرائعة تلك، لا أظن هذا.

علقت بشيء من الإحباط:

- بكائي أكثر.

ليجيب بحماس:

- سأجعل العكس هو الصحيح.

زفرت بضيق:

- لا أظن، فالأمر أصعب مما تتخيل.

ليرد بتحدٍ:

- أنتراهن؟!

بتعجب سألته:

- على ماذا؟!

- على أنني سأنجح في محو الحزن من داخلك إلى الأبد، واستبداله بالضحك والابتسام.

- أتمنى هذا حقًا

- وإن فعلته، ماذا تقدمين لي؟

- ماذا تريد؟!

- صداقتك إلى الأبد.

- لا أظن أنني سأمانع.

****

قطع حديثنا الثنائي صوت والده (مجاهد) وهو يخبره أن موعد رحيلهما قد حان، والتفت إليَّ والبسمة تزين محياه قائلًا:

- سررت للقائك بنيتي، وأتمنى أن تسعدينا بزيارة منك إلى منزلنا

هممت بالإجابة ولكن عاجلني (نادر) قائلًا:

- هذا شيء مفروغ منه يا أبي، فأنا و(ملك) اتفقنا على أن تأتي لتناول الغداء معنا غدًا.

قالها وهي يغمز لي، بينما نظرت إليه باستغراب، فنحن لم نتفق على هذا ولكنني لزمت الصمت، وتابعت والده وهو يعلق بسعادة ظاهرة:

- إذًا سأكون بانتظارك بنيتي.

أومأت له برأسي دون أن ينطق لساني بحرف، وعلامات الدهشة لم تكن قد فارقتني بعد، وبعد أن تم الاتفاق دون أن أدري به عليَّ الذهاب إليهم في الغد، رحلا سويا والتفت إلى (نادر) وغمز لي ثانية، وهو يشير إليَّ بيده مودعًا بطريقة طفولية مرحة، فانبثقت ابتسامة على شفتيّ وبتلقائية رفعت له يدي ملوحة ولوهلة شعرت أننا الاثنان طفلان لم نتجاوز العاشرة، راق لي هذا الشعور، وحينها تمنيت من كل أعماقي لو أن بمقدوري أن أعود طفلة، ويتوقف بي الزمن فلا يتقدم بي العمر، ولكن ليس كل ما يتمناه الإنسان مباح، تنهدت بقوة وأنا أتابع (نادر) ووالده يختفيان في الظلام أمامي، وحوطت نفسي بذراعيّ حين شعرت بلسعة برد طفيفة سرت بأوصالي، فتوجهت عائدة إلى المنزل، وأنا أفكر أما زال (إيهاب) بالخارج؟ ولكن متى يعود؟

أحسست بغصة قوية عصرت قلبي حين تذكرت أنه ليس وحيدًا كي أقلق عليه، فهو برفقة (سارة) تلك الشقراء لابد وأنهما يستمتعان بوقتهما معًا، ولكن هل يتذكرني وهو بحضرتها، ويتساءل عن أحوالي مثلما أفعل أنا؟ أم أنه ينساني برفقتها؟

غاص قلبي بمكانه ما إن فكرت في هذا الأمر، وعدلت عنه مذعنة لنفسي أنه قد يكون كُلف بمهمة شاقة في عمله، تتطلب منه العودة في أوقات متأخرة، فراق لي هذا الخيار.

وسكنت إليه وأنا أمني نفسي بأنه لا يتحتم أن يكون معها كما أظن، انتشلني صوت (نجوى) من هوس أفكاري وهي تدعوني للجلوس معهم حين رأتني أتوجه نحو السلم دون أن انتبه إليهم، حدقت فيهم وهم يجلسون معًا في جو عائلي سرا دفئه في أرجاء المنزل، كان ينقصهم فقط وجود (إيهاب)، وحينها فكرت لو أن والدي ما زال على قيد الحياة، وأنا و(إيهاب) ما زلنا متحابان، لكنا جميعنا نجلس معًا

نتسامر ونتبادل النكات سويًا، ولكان قلبي سليمًا من جروح الألم التي سكنته، تنهدت بحزن وأنا أعود إلى واقعي ونظرت إليهم مليًا، وبداخلي يشعر أنني لست منهم وليسوا مني، إحساسي أنني غريبة متطفلة على هذا المنزل بدأ يعلن عن نفسه بداخلي، تنهدت بقوة، وقلت بابتسامة على شفتاي، وحزن يمكن بصدري:

- أريد أن أذهب لغرفتي أرتاح قليلًا.

رمقوني بابتسامة متفهمة، وقالت (نجوى) بحنانها الذي لطالما لمسني:

- اذهبي حبيبتي.

تركتهم وتوجهت إلى غرفتي، دخلتها كما لو كانت المرة الأولى، نظرت حولي أستكشفها بعين الفضول، كانت واسعة، زينت جدرانها بطلاء بلون السماء يبعث في النفس راحة، رغم أني لم أنتبه لهذا من قبل، وفي منتصفها يكمن السرير الذي عاش معي الكثير من لحظات القهر والألم، ولاحظت تلك الشرفة التي تقابل باب الغرفة، وكأنها وُجدت للتو، توجهت

نحوها ودلفت إليها لأملأ صدري بعبق هواء الليل الذي لا يسلم من البرودة المحمولة بين ثناياه، سرعان ما تألمت رئتي محتجة، فعدت إلى الغرفة، وغيرت ملابسي على عجلة لا أدري سببها، وعلى الرغم من كوني نمت ما يكفي بالأمس، إلا أنني حين اندسست في الفراش بنية قليل من الراحة لا أكثر من ذاك، ارتخى جسدي، وثقل جفني، وغاب عقلي، وذهبت في سبات عميق.

****

فتحت عيناي بثقل حين هاجمتني أشعة الشمس الدخيلة، فقد تسربت من الشرفة التي لم أغلقها بالأمس، وما إن اعتدلت بمكاني، أفرك عيناي طردًا لبقايا النوم التي ما زالت عالقة بأهدابي، سمعت طرقات خفيفة على الباب، فسمحت للطارق بالدخول، لتظهر (بثينة) من ورائه قائلة:

- صباح الخير سيدتي.

قلت وأنا أتثاءب:

- صباح الخير يا (بثينة)، ولكن هل لكِ بمناداتي (ملك)، فأنا لا أحب سيدتي تلك.

أومأت برأسها في طاعة، قائلة:

- كما تريدين آنسة (ملك)، لقد جئت لكِ بطلب من السيدة (نجوى)، لأسألكِ إن كنتِ ستتناولين الإفطار معهم، أم أحضره لكِ هنا في غرفتكِ؟

نظرت إليها مليًا وسألتها:

- هل (إيهاب) بالأسفل؟

لتجيب:

- نعم.

زاد خفقان قلبي، وسألت ثانية بتوجس:

- وهل (سارة) موجودة أيضًا؟

أجابت:

- لا لم تأتِ اليوم.

ابتسمت في سعادة، وانتظمت أنفاسي المتهدجة، وأجبت بابتسامة أظنها أنارت وجهي:

- سأتناول معهم الطعام.

ما إن غادرت (بثينة)، غادرت فراشي بنشاط مفاجئ، وتوجهت إلى الحمام واستحممت على عجلة، ثم وقفت أمام الدولاب أفكر أي تلك الثياب سيحبني بها (إيهاب)، ابتسمت سخرية من نفسي، ف(إيهاب) يحبني أنا ولا يحب ملابسي.

وبعد دقائق من التفكير، استقريت على بنطالًا من الجينز ليكون مريحًا في الحركة، وانتقيت بلوزة زرقاء ذات أكمام واسعة، زينت على الصدر بقليل من الرسومات الصغيرة ذات ألوان متداخلة، توجهت إلى المرآة وأنا أخشى النظر إلى ما آل إليه حالي، مشطت شعري ورفعته بدبوس كعادتي، تمنيت لو أتركه لكن شيئًا ما منعني، كنت أتحاشى النظر إلى

صورتي المنعكسة بالمرآة، ولكني حينما رفعت شعري، رفعت نظري فرأيت شحوب وجهي لم يرحل بعد، وشقوق شفتاي تطل بوضوح لتخرج ألسنتها لي في شماتة، تنهدت بضيق وأغلقت عيني بشدة وكأنني أمحو صورتي منها. بقلب متوجس، وأنفاس مضطربة، وخطوات مرتعشة هبطت درجات السلم، لأجدهم يجتمعون معًا حول مائدة الإفطار، وكان بينهم يجلس بجوار عمي، وضعت يدي على صدري أتوسل أن يكن مكانه، ويكف عن ضجيجه المزعج، ماذا فعلت بي يا (إيهاب) لتنسحب أنفاسي مني بهذا الشكل حين أراك؟!

اقتربت منهم بخطوات سلحفاء، وبصوت هامس ألقيت التحية، فرفعوا جميعًا أنظارهم نحوى يردون التحية، بينما شعرت نظرات (إيهاب)- التي كنت أتجاهلها - تخترقني، جلست بجوار (ندى) التي ما انفكت تسأل عنى وعن صحتي وما آل إليها، وأنا أجيبها بأني تحسنت كي أرضي لهفتها، وبينما كان الجميع مستغرقًا في تناول الطعام، رفعت عيني خلسة لأنظر إليه، لأتفاجأ به ينظر إليّ بدوره، هربت بعيني سريعًا إلى الطبق أمامي، بعد أن شعرت بأن زلزالاً عنيفًا دوى أسفل مني، وتضرجت وجنتاي بنار الخجل، شعرت بدمائي الساخنة تتدفق إليهما، أكملت طعامي وعيناي مثبتتين في الطبق الماثل أمامي لا تبرحانه، وتزداد دقات خافقي بجنون حينما أسمع صوته المحبب إلى قلبي يتناهد إلى مسامعي بين الحين والأخر، إلى أن انتهت وجبة الإفطار، فتوجه (إيهاب) إلى عمله وحينها عاد إليَّ حزني، حين

رحل دون أن يودعني كما كانت عادته، تتبعته ببصري ويكاد قلبي يهرب من بين ضلوعه ليذهب معه، أبى عقلي إلا أن يزيدني غمًا حين أخذ يلح عليَّ باستماتة مذكرًا إياي بطقوس إفطاري مع (إيهاب)، فكنا حين يذهب أبي إلى عمله باكرًا يتناول إفطاره في شركته، يأتي إلى غرفتي ويلح في طرقه على الباب إلى أن أستيقظ، فأفتح له الباب وأنا أتثاءب وما زال النوم يسيطر على ملامحي، لأقول في تبرم:

- هل كل يوم ستزعج منامي بتلك الطريقة؟!

فيجيب بهدوء مستفز:

- نعم، إلى حين أن تستيقظي بمفردك.

أفرك شعري وأعلق باستنكار شديد:

- ولكن ماذا ورائي لأستيقظ مبكرًا هكذا؟!

ليجيب بنفاذ صبر:

- أنتِ تعلمين جيدًا أنني لا أستطيع تناول الإفطار بمفردي.

تستيقظ حواسي وتنفض عنها ما تعلق بها من آثار النوم، لأعلق مشاكسة:

- تريد أن تقول أنك لا تستطيع تناول الإفطار إلا وأنا معك، أليس كذلك؟!

فينظر إليَّ بوجه مضحك، وهو يحاول جاهدًا إخفاء تلك الابتسامة ويجيب:

- نعم يا متعبة هو كذلك، هيا استعدي لتناول الإفطار قبل أن أتأخر عن موعد ذهابي.

أفاقني صوت (نادر) الذي اخترق عقلي حين قال:

- فيمَ تفكرين؟

نظرت إليه بدهشة فقد نسيت أمر ذهابي إلى منزلهم اليوم، ولم أكن أتوقع رؤيته أمامي، فأكمل في مرحه:

- لمَ لا تشاركيني أفكارك؟ فأنا فضولي إلى أبعد الحدود.

فقلت بابتسامة:

- لا شيء كنت شاردة فحسب.

غمز لي وقال بابتسامة أظهرت غمارته:

- تشردين كثيرًا.

ضحكت على طريقته وهو يتحدث، كان يمتلأ مرحًا، وحماسه ينتقل إليَّ دون جهد منه أو مني، كان طفوليًا جدًا في تصرفاته وحركاته، رغم طول قامته الذي لم يقف حائلًا أمام ذلك، فوجئت به يسحبني من يدي بغتة أمام أنظار (نجوى) و(ندى) المندهشة، وهو يقول لهما:

- لا تقلقوا، فسأعيدها إليكم مساءً.

كان يحث الخطى وأنا أتبعه ويدي ما زالت عالقة بيده، نظر إليَّ بعد أن توقف فجأة، قائلًا بجدية:

- لمَ لا نتسابق إلى منزلنا؟!

قالها وهو يشير بإصبعه إلى المنزل، تعجبت من عرضه وزاد تعجبي حين رأيت علامات الجدية تظهر على محياه، فتساءلت والتعجب ينهشني:

- ولكن لمَ؟ نحن لسنا على عجلة من أمرنا!

أجاب وهو يركض بمكانه:

- هذه رياضة سيدتي، كوني عملية واستغلي عرضي، فأنتِ بحاجة إلى أن تصل الدماء إلى وجهك الذابل هذا.

وضعت يدي على وجهي وأنا أتذكر صورتي بالمرآة، وشحوب وجهي واختفاء نضارتي، فنظرت إليه وسألته:

- أمتأكد من كونك مهندسًا زراعيًا؟!

أجاب وهو ما زال يركض بمكانه:

- نعم، ولكن لِم؟!

قلت وأنا أضيق عيني قليلًا:

- ظننتك مدربًا رياضيًا.

ضحكت ملئ شدقيه، وكان تلك المرة الأولى التي أسمعه يضحك فيها بصوت ظاهر، كانت ضحكته تشبه شخصيته إلى حد كبير، فكانت ذات نغمة مرحة تبعث في نفسك الحماس، وتجبرك على مشاركته الضحك، قال وهو يسير بضهره للخلف فاردًا ذراعيه: فلتعتبريني مدربك الخاص إذًا، ولنبدأ السباق، فمن سيصل أولًا سيعاقب الأخر بأي شيء يريده، اتفقنا؟!

نظرت إليه بنظرات تائهة، ثم ما لبثت أن أحببت عرضه فاقتربت منه وأنا أتظاهر بالتفكير، وما إن أصبحت بجواره هتفت "موافقه" ثم انطلقت أركض بكل ما أوتيت من سرعة، وهو خلفي يصيح بي مستنكرًا:

- هذا ظلم لم نبدأ العد بعد.

فأضحك على صوته المتهدج من إثر الركض، وفي لحظات أجده يعدو بجواري ويبتسم لي ابتسامة عريضة تحمل شماتة طفل أهداه والده لعبة أفضل من أخيه، فقال بغل واضح:

- سأسامحك على غشك هذه المرة، ولكني لن أرحمك حين أفوز.

قال تهديده بجدية شديدة، وهو يضيق لي عيناه ويشير بسبابته متوعدًا، كما لو كنت عدوته فعلًا، فما كان مني إلا أن انفجرت ضحكًا على منظره، ولم أقوَ على استئناف عدوي، فوقفت قليلًا أكمل ضحكي وأسمح للهواء أن يعبأ رئتاي، بينما كان هو يكمل عدوه كما لو أن شيئًا لم يكن، فصرخت فيه بأعلى صوتي:

- أنت يا هذا انتظر قليلًا.

فالتفت إليَّ وقال بعناد:

- لن أفعل، تستحقين هذا أيتها الغشاشة.

ضحكت من أعماقي وانطلقت أركض مرة أخرى، ولكنه كان قد سبقني بمسافة لا بأس بها، فكان أول من وصل إلى المنزل.

****

ارتميت بجواره حيث كان يجلس على النجيل أمام منزلهم، ألهث بشدة إثر الركض، فنظر إليَّ بفرح وقال وهو يلهث:

- لم ينفعك غشك أيتها الغشاشة.

علقت بعناد طفولي مقلدة إياه:

- ولكن أنت من جعلتني أضحك فلم أستطع أن أركض حينها.

هز كتفاه وقال:

- لا دخل لي بهذا، ما يعنيني أنني هو الفائز.

نظر إليَّ بشماتة وغمز لي بينما كان يعتدل في جلسته ليواجه وجهه وجهي، ثم قال بنبرة تحمل الكثير من السعادة:

- وهذا يعني أنني من سيطلب منكِ فعل شيء لأعاقبك.

عقدت يدي أمام صدري بترفع شديد، قائلة:

- أخبرني ماذا تريد؟

لمعت عيناه بسعادة مبالغة، ثم دس يده بجيبه ليخرج بصورة قدمها لي، كانت صورة لامرأة تبدو من زمن قديم، ظهر ذلك من التصميم القديم لفستانها، وقصة شعرها التي كانت منتشرة في زمن سابق، كانت تجلس على كرسي واضعة قدمًا فوق الأخرى، وتنظر إلى عدسة الكاميرا بابتسامة مشرقة أشرق لها وجهها، كما ظهر على إثرها غمازتين تزين كل واحدة منهما خدًا، قاطع تأملي المسترسل صوت (نادر):

- إنها أمي، أريد منك رسم لوحة لها.

نظرت إليه دفعة واحدة، لأسأل بدهشة:

- كيف عرفت أني أجيد الرسم؟!

نظر أمامه وبدا شاردًا بينما كان يقول:

- أعرف عنكِ كل شيء تقريبًا.

قطبت جبيني، وسألته متوجسة:

- كيف؟!

التفت إليَّ بابتسامة باهتة، بينما اختفت لمعة عينه ليوضح قائلًا:

- كنا أنا و(إيهاب) أكثر من أصدقاء، فما كان ينفك بإخباري عنك

- إذًا أنت تعرف بأمري أنا و(إيهاب)؟

- نعم، وأعرف جيدًا ما آلت إليه الأمور بينكما.

انعقد لساني ولم ينبس بكلمة، واضطرب عقلي،

وهاجمته الأسئلة، فكيف لم أفكر يومًا أن (إيهاب) و(نادر) قد يكونا صديقين؟ فوالديهما صديقان، هل (إيهاب) هو من طلب من (نادر) أن يصاحبني؟ أيظن هكذا أنه يخفف عني؟

إن كانا صديقين لِمَ لم يخبرني (إيهاب) بأمره من قبل؟ هل يعلم (نادر) إن كان (إيهاب) ما زال يحبني أم لا؟!

انتفض جسدي حين قبض (نادر) على يدي بشدة، فنظرت إليه بنظرات تائهة، بينما قال بهدوء شديد مخالف لحماسته المعهودة:

- ولكني لم أؤيده في قراره بالزواج من (سارة)، وبسبب هذا توترت العلاقة بيننا.

رفعت بصري إليه وكثافة الدموع تزداد بعيني، ونيران الغيرة تشتعل داخلي لتترك جوفي رمادًا، لأجد نفسي أجيب بغل لم أعهده:

- لن أدع هذا الزواج يتم، حتى وإن تطلب مني الأمر قتلهما معًا.

تسمرت مكاني، وانفرجت عيناي على آخرهما حتى كادا ينخلعان من محجرهما وأنا أراه يضحك بشدة، اشتعلت نيران الغضب برأسي حتى شعرت بدمائي تفور غليانًا، فنهضت من مكاني بعصبية وعزمت على العودة، ليمسك ذراعي وهو يقف أمامي ويحاول كتم ضحكاته، قائلًا: أرجوكِ لا تغضبي.

أزحت يده الممسكة بذراعي بحدة وصحت به:

- هل أخبرتك بمزحة لتضحك هكذا؟

اعتدل في وقفته وقد عاد إليه هدوءه، بينما قال بصوت رزين يخلو من مرحه مما زاد دهشتي لتقلباته العجيبة هذه:

- ما تقولينه هذا يعد أكبر مزحة قد أسمعها بحياتي.

هممت بالاعتراض ولكنه أوقفني بإشارة عازمة من يده، ونظرة تحدي انبثقت من عيناه، بدا كما لو كان شخصًا آخر غير ذلك الذي كان يتسابق معي للتو، فواصل حديثه قائلًا:

- لا ينبغي لمثلك يا (ملك) أن يفكر بتلك الطريقة، فلا يجب أن تشوهي نقاء قلبك وتعكيره بالحقد والغل.

صرخت بسرعة قبل أن يستوقفني:

- وهل يجب أن أبارك لزواجهما؟!

- لا، أنا لم أقل هذا، ولكن أيضًا يجب ألا تحقري من مكانتك وتتنازلي عن كبريائك وتسعيْ لإفساد زفافهما.

لم أعقب بينما اكتفيت بالنظر إليه وكأنني أستجديه، وغشاوة الدموع تتكثف في عيني، فأردف ناظرًا إلى عيني مباشرة كما لو كان ينقل إليَّ القوة من خلالهما:

- عليكِ ألا تفكري في شيء سوى نفسك، يجب أن تنهضي من وحل أحزانك، وتنفضي عنك ذلك الشجن العالق بأعماقك، عليكِ أن تكوني أقوى من همومك، تكوني امرأة محاربة تقفي أمام الحب وجهًا لوجه، وتجمعي عدتك وتتأهبي جيدًا لتقتلي حب (إيهاب) في قلبك.

انهمرت دموعي، وزادت مرارة حلقي، أجبت بصوت متقطع إثر غصة مؤلمة أصابت قلبي تكاد تمزقه:

- لن أقدر.

صرخ قائلًا:

- بلا تقدرين.

زاد بكائي ليزيد من نيران صدري، وعلقت من وراء دموعي:

- أتمنى حقًا لو أقدر.

- حتمًا ستقدرين، فأنتِ بالقوة الكافية لهذا.

تساءلت كمن يتعلق بقشة في عرض البحر:

- أتظن هذا؟!

أجاب بحماس:

- نعم أنا على يقين من هذا، وأول شيء عليكِ فعله هو أن تعقدي العزم.

أومأت له برأسي مؤيدة بينما كان قلبي يصرخ رافضًا، وعقلي يوبخه بعنف كي يصمت

فاسترسل (نادر) وهو يشد على يدي باعثًا فيها شيء من القوة:

- وثاني شيء عليكِ فعله الآن هو أن تقومي بتجفيف دموعك، وتظهري أسنانك قليلًا، ولا تخافي فلا يوجد هنا قوانين تمنع الابتسام.

مددت يدي أزيل آثار البكاء، بينما مد هو يده ناحيتي فنظرت إليه متسائلة، لأجده ينظر إليَّ بجدية، ويقول:

- أتعديني بأنك ستبذلين ما بوسعك لتعودي تلك الفتاة المرحة التي لم أقابلها بعد؟

نظرت إلى يده الممتدة نحوي بخوف، فما يطلبه مني ليس بهذه البساطة، ولست على علم إن كنت سأقدر على تحقيقه أم لا، قطع صمتي الذي طال قائلًا:

- أعلم أنه صعب ولكن يجب أن تكوني أقوى، وتحاربي لتحقيقه، وأنا سأكون أول المساعدين.

ما زال نظري مثبت على يديه وأنا أفكر بما قاله، إنه محق تمامًا، فيجب أن أنهي الحزن من حياتي، وأرمم قلبي الذي هدمته أوجاع الحب، فإلى متى العذاب؟ إلى متى سأظل أسيرة الحب وأشجانه؟ يجب أن أضع حدًا لكل هذا.

مددت يدي بينما قلت له بتحدي شديد:

- أعدك، أعدك أني سأحارب بكل ما أملك من أسلحة لأنزع (إيهاب) تمامًا من كياني، وسأعود تلك الفتاة المرحة التي تود مقابلتها.

تهللت أساريره ولمعت عيناه بفرح، فصاح وقد عادت إليه حماسته:

- ألن ندخل، أم أننا سنظل بالخارج كما لو أن هناك وحشًا بالداخل؟

نظرت إليه بدهشة لتغييره لمجرى الحديث، ولكن سرعان ما انتبهت لكوننا ما زلنا خارج المنزل ولم ندخل بعد، فأجبت ضاحكة:

- هيا فلندخل إذًا.

****

ما هي إلا لحظات وكنا سويًا داخل منزلهم، كان يسبقني بخطوتين، و كنت منشغلة بتطلع المكان حولي بفضول تام، فقد كان منزلهم أكثر تواضعًا من بيت عمي، ولكن يشاركه في كونه يتكون من طابقين، وكان

الطابق الأول ذو أثاث بسيط جدًا يتناثر حول درج ملتف في وسطه، ذلك الدرج الذي جذبني (نادر) من يدي وصعدناه معًا، بينما قال:

- لابد أن أبي في الأعلى فهو لم يذهب للعمل اليوم.

وما إن وصلنا الطابق العلوى حتى وقعت عينايَ على صورة عملاقة تزين الحائط المواجه للدرج، وقد تعرفت عليها في حال رأيتها إذ كانت لوالدة (نادر)، وتذكرت الصورة التي طلب مني رسمها وانتبهت لأنها كانت لا تزال بين أصابعي، دسستها بجيبي بينما كنت أتساءل أنى لي برسمها وأنا لا أملك من أدوات الرسم شيئًا، نفضت الأسئلة عن رأسي وقد عزمت على أن أفكر بهذا الشأن لاحقًا، وأخذت أتابع (نادر) بعيني وهو يتوجه إلى الغرفة التي تقع على يمين الصورة، وما إن طرق الباب طرقات خفيفة أتى له صوت والده سامحًا لنا بالدخول، التفت إليَّ مشجعًا للدخول معه بهزة من رأسه، ثم أمسك بيدي ودخل بي يسحبني خلفه كما لو كنت طفلة صغيرة يذهب بها إلى المدرسة في أول يوم، قام والده من وراء مكتبه العملاق الذي يقع مقابل الباب، تقدم نحونا ببشر وسرور شديدين حتى بدا لي أنه قد بالغ في سعادته، يبد أن ابتسامته ما زالت تبعث في النفس راحة لرؤيته، وبحرارة شديدة أخذ يرحب بي، وبكلمات كثيرة أظهر لي فرحه بزيارتي لمنزلهم المتواضع، أجبت على ترحابه الشديد بكلمات قليلة مغلفة بابتسامة صغيرة خجولة، حتى شعرت بكوني فظة معه ولكن شكوكي زالت ما إن رأيت ابتسامته تتسع، استأذنه (نادر) بأن نحظى

ببعض الوقت معًا إلى أن يحين موعد الغداء، ارتفع حاجبيّ دهشة وأنا أكتم شهقة بصدري حين رأيته يجيب عليه بغمزة - وقد أدركت حينها أن هذه العادة صفة جينية تورث في هذه العائلة –قائلًا::

استمتعا بوقتكما -

كتمت بصدري ضحكة أرادت الخروج حين رأيت (نادر) يجيب عليه بغمزة مماثلة، وكأنها لغة تواصل جديدة اخترعت خصيصًا لهما، تجاوز (نادر) الغرفة الثانية المجاورة لغرفة والده إلى تلك القابعة في آخر الطابق، قال وهو يفتحها بلهفة وسعادة:

- هذه الغرفة من صنعي.

بدا متحمسًا للغاية كما لو كان سيريني كنزًا ثمينًا مما أثار فضولي لرؤيتها، سبقني إلى الداخل وتبعته بخطوات متلهفة والفضول يكاد ينهشني، التفت إليه بغضب وقلت بحدة:

- لِم لا تفتح النور، أتلعب معي؟

أجاب ضاحكًا وكأنما راق له فضولي المتقد:

- أود أن أجعل لها ظهورًا خاصًا.

ضغط بإصبعه على زر الإنارة وأشار بيده إلى الغرفة بطريقة مسرحية، فتتبعت بنظري ما يشير إليه بيده، وببطئ شديد رحت أتجول بعيني في أرجاء الغرفة، ولوهلة شعرت بنفسي أقف بمتحف للموسيقى أو ما شابه، حيث كانت تعج بالكثير من الأدوات الموسيقية التي أبهرت عيني

وأسرت بداخلي إعجاب شديد على الرغم من جهلي بأكثرها، ولكنها بشكل أو بآخر أثارت داخلي شعور بالبهجة وكأني طفلة تقف أمام عالم غريب عنها يمتلئ بالجديد من الألعاب، توجهت بالسؤال إلى (نادر) الذي كان يحدق بي لا يريد أن يفوت ردة فعلى:

- هل تستطيع العزف على كل هذه الآلات؟!

ألقيت سؤالي وما زالت عيناي مثبتتان على ذلك البيانو الضخم الذي يقف بهيبة شديدة أسفل النافذة المقابلة للباب، وكأنه (ملك) كل هذه الآلات يتربع على عرش مملكته، يزيده لونه الأسود تأنقًا وجاذبية أسرت لها عيني، وأجاب (نادر) بينما يجوب الغرفة بفخر أب ينظر إلى أبنائه بعد أن بذل الغالي والنفيث في تربيتهم:

- بالطبع، وإلالِمَ أمتلكهم؟!

علقت وأنا أتفحص مزمارًا وضع على منضدة صغيرة على يسار الباب:

- هذا شيء رائع حقًا.

تفاجأت به خلفي مباشرة وهو يأخذ المزمار من يدي متطلعًا إليه بعين المشتاق كما لو أنه لم يره منذ سنين، قال وما زالت عيناه تتأمل المزمار بحب:

- أعشق الموسيقى فهي الشيء الوحيد الذي يبعث في نفسي السعادة بدون أدنى جهد مني، الموسيقى ترسلك إلى عالم آخر بعيد عن نفاق البشر.

قطعت استرساله متسائلة:

- حين تستمع إليها أم حين تعزفها؟

بدون تفكير أجاب:

- الاثنان عندي واحدًا.

التفت إليَّ ببريق يتقد من عينيه وقال بحماس:

- ما رأيكِ بأن أعلمكِ العزف على إحدى هذه الآلات؟

وبتلقائية تعجبت لها وجدت نفسي أرفع يدي كالمسحورة أشير بها نحو البيانو:

- سيكون رائعًا لو تعلمت العزف على البيانو.

لم أنتظر رده بل توجهت إلى تلك الآلة الرائعة التي استطاعت أن تلفت انتباهي وتركيزي كاملًا إليها وكأن الغرفة تخلو إلامنها، أخذت أتحسس بيدي أصابعه البيضاء والسوداء وكأنني أحاول فك شفرته وتعلم العزف بمفردي دون الحاجة إلى أحد، أتاني صوت (نادر) وقد جعله قاسيًا وهو يقول:

- فلتستعدي إذًا يا تلميذتي الأولى فأنا جديّ ولا أحبذ الكُسالى.

التفت إليه بتحدي وقلت باعتداد:

- لن تجد من هي في نشاطي وسرعة بديهتي، متى سنبدأ فأنا لا أحبذ تضييع الوقت؟

دس يده في جيبه، وقال وغمازته تلوح على خده:

- حين تنتهين أولًا من رسم لوحة لوالدتي.

تذكرت أمر الصورة وبتلقائية وجدت نفسي أتحسس موضعها بجيبي وكأني أطمئن لأمر وجودها، فقلت بصوت مضطرب:

- ولكني لا أملك من أدوات الرسم شيئًا.

اتسعت ابتسامته وغاصت غمازته أكثر في مكانها:

- لا بأس سنذهب سويًا لشرائها، وفى حقيقة الأمر هذا ما كنت أطمح فيه.

قال جملته الأخيرة غامزًا، مما دفعني للضحك على روحه الطفولية التي تتضح جليًا في طريقة حديثه، ثم قلت:

- لم تخبرني بعد، ما اسم والدتك؟

تنهد بقوة، وثبت نظره على نقطة وهمية أمامه وفي عينيه طيف دمعة تتراقص بهما، بدا وكأنه يراها أمامه حين لاحت ابتسامة خفيفة على شفتيه وهو يقول:

- فريدة، اسمها فريدة، وكانت حقًا كذلك.

****

أسدل الليل أستاره بعد أن انقضى النهار سريعًا، فعلى خلاف الوقت بمنزل عمي كان الوقت هنا على عجلة من أمره، تناولت مع (نادر) ووالده وجبتيْ الغداء والعشاء، وكان لوجبة العشاء عندهم طقوس خاصة، فقد كانا - وفق ما أخبرني به (نادر) - يتناولانها دائما في الحديقة الخلفية

لمنزلهم حيث يوجد منضدة متوسطة الحجم محاطة بكراسي خشبية مصنوعة من عسف النخل، وقد خمنت أن السبب الذي يدفعهم لهذا هو وجود الهواء المنعش الذي يلعب دورًا هامًا في إضافة لمسة خاصة للطعام، إذ لاحظت أن شهيتي قد تضاعفت ثلاث أضعاف ما كانت عليه، وتبين لي أن (نادر) قد ورث حماسته وروحه الطفولية المفعمة بالحب والحياة من والده، فما كان يجلسان معًا إلا وامتلأت الأرجاء بصدى ضحكاتهما، وساد الهرج والمرج لا تكاد تميز بينهما من هو الأب ومن الأبن، تملكني شعور قوي أني قد وجت عائلة أخرى لي أنجبتها الظروف والأيام، لذا هاجمني الحزن مع قدوم الليل فلو كان باستطاعتي لبقيت مع هذان الرجلان المشعان بالحياة.

بخطوات وئيدة مترددة خطونا أنا و(نادر) عائدين إلى منزل عمي، كان الليل يلحن عزفه الصامت على مسامعنا فلم يسعَ إحدانا إلى إزعاجه، ما ان وصلنا إلى المنزل توجه لي (نادر) بالحديث:

- سأكون مشغولًا في عملي طوال هذا الأسبوع، لذا سنقوم بتأجيل شراء أدوات الرسم للأسبوع المقبل.

أومأت رأسي بأسى، فكيف سأظل أسبوعًا بأكمله بعيدة عنه، في ملل هذه الأيام الرتيبة، في هذا المنزل المثير للذكريات والمهيج للأحزان، وحينها أدركت نعمة وجوده بجواري، إذ يدب فيّ القوة التي أحتاجها لأحارب بها أشجاني، قطع شرودي بسؤاله:

- أمعكِ هاتف أتواصل معكِ من خلاله؟

حركت رأسي نافية وأجبت بحزن:

- لقد ضاع مني بالإسكندرية ولم أعره أدنى اهتمام، فلم يعد يوجد من يتواصل معي.

أظنه لمس نبرة الحزن بصوتي، فدنا مني ممسكًا يدي وضغط عليها برفق، ولم يزح عينه عن عينايَ وكأنه يود لو يبعث فيّ القوة من خلالهما، قال:

- لا عليكِ سأجد طريقة أتواصل بها معكِ.

أومأت بابتسامة فاترة بينما لم تعلق شفتايَ، ثم واصل حديثه قائلًا:

- هيا ادخلي الآن وكوني قوية دائمًا.

أومأت برأسي ثانية، وما زالت الابتسامة الفاترة مرسومة على شفتيّ، أدرت له ظهري وبخطوات ثقيلة توجهت نحو الباب وما إن أصبحت على بعد خطوة منه، أتاني صوت (نادر) من خلفي صائحًا:

- (ملك).

التفت إليه متسائلة، فوجدته يبتسم لي ابتسامة عريضة أتاحت لي رؤية غمازته من موضعي، أشار نحو فمه قائلًا بحماس:

- ابتسمي، فلا يوجد هنا ضريبة للابتسام.

****

دلفت منزل عمي بقلب غير الذي خرجت به، وابتسامة واسعه لا زمتني ورفضت الرحيل، وجدت عمي بصحبة (ندى) يجلسان معًا في الصالون،

وما إن ألقيت التحية حتى اندفعت (ندى) نحوي تعانقني بشدة، وكأنها لم تَرَنِ منذ قرون، ابعدتني عنها قائله:

- لقد تأخرتِ كثيرًا، ولكن يمكنني التخمين أن اليوم كان ممتعًا لكِ، فقد أشرقت ابتسامة وجهك.

أومأت برأسي مؤيدة واتسعت ابتسامتي:

- نعم، لقد استمتعت كثيرًا.

أتى صوت عمي من خلفها قائلًا بوقار مشابه لوقار أبي:

- سعيد من أجلكِ حبيبتي، أتمنى أن تظل الابتسامة دائمة على وجهكِ.

أجبت بخجل وداخلي ينتشي فرحًا، حين لاحظت أن هذه أول مرة أبتسم فيها أمامهما، وبصدق علقت:

- شكرًا لك عمي.

ثم نظرت إلى (ندى) التي كانت تتأملني مبتسمة وكأنها أم تنظر لابنتها في ثوب زفافها، سألتها عن والدتها فأخبرتني أنها تخلد للنوم مبكرًا، ثم تركتهما بعد أن استأذنت بالذهاب إلى غرفتي لأنال قسطًا من الراحة، وبينما كنت على وشك الدخول إلى الغرفة، انسحبت أنفاسي عندما وجدت من يجذبني بحدة من ذراعي، فالتفت بذعر لأجد (إيهاب) يقف أمامي وقد اكفهر وجهه بطريقة مخيفة أثارت الرعب بداخلي، هرب مني صوتي فلم تستطع شفتايَ أن تنبس ببنت شفة، زادت قبضته على ذراعي بطريقة آلمتني وقال من بين أسنانه المطبقة:

- " أين كنتِ طوال اليوم؟"

استبد بي الحنق وطغى على خوفي، على الرغم من مظهره الذي بدا مخيفًا لأبعد الحدود، فقد صُبغ وجهه باللون الأحمر الدموي لشدة غضبه، وكانت نظرات الشرر تطاير من عينيه لتلحفني بشراسة، فأزحت ذراعي من قبضته وصرخت به:

- ما شأنك أنت؟

أجاب وهو يضغط بشدة على أسنانه وقد زاد غضبة:

- أنا المسئول عنكِ هنا، وأطلب منكِ ألا تخرجي مع (نادر) هذا مرة أخرى.

اعتمر الغضب بداخلي، وشعور بالسخط يكاد يهشم فؤادي، إلا أن مكانًا ما بداخلي في أقصى ركن كان جزلًا سعيدًا يكاد يقفز فرحًا، فقد أصبحت على يقين أن السبب وراء غضبه الهادر هذا هو غيرته، أجبت بنبرة غاضبة تحمل من العند الكثير:

- أنت لست مسئولًا عني كما تزعم، فالوحيد المسئول عني هو عمي بعد وفاة والدي، أما (نادر) فأنا وحدي من أقرر الخروج معه أم لا.

دخلت سريعًا كالممسوسة إلى الغرفة دون أن أنتظر رده، وبعقل مشتت وقلب مضطرب صفعت الباب خلفي، ولكن سرعان ما ارتسمت ابتسامة نصر على شفتي، وكان قلبي يدق بجنون وعقلي يرقص جزلًا لغيرته.

****

لا أعرف متى وقعت في النوم، حيث فجأة أقلق نومي أشعة الشمس التي اقتحمت غرفتي عنوة لتنبهني بقدوم يوم جديد، اعتدلت في فراشي أتحسس رقبتي التي تؤلمني بشدة، وقعت أنظاري على ملابسي التي لم أبدلها بالأمس فتوجهت نحو الدولاب بخطوات بطيئة متثاقلة والتقطتُ ملابس أخرى لأرتديها، وكعادتي انتقيت بنطالًا من الجينز وفوقه بلوزة بيضاء ذات أكمام واسعة لا يخالطها أي لون آخر، وبداخلي يزعم ببداية صفحة جديدة لحياتي ناصعة البياض تخلو من السواد الذي يخلفه الحزن، وبخفة ارتديت ملابسي ووقفت أمام المرآة أمشط شعري وأرفعه وأنا أتأمل ملامحي وقد اعتراني دهشة عارمة حينما اختفى السواد الذي كان يقيم أسفل عيني، وعادت الحياة مجددًا إلى شفتيّ، واختفى شحوب وجهي وعادت حمرة الدماء مرة أخرى إلى وجنتاي، تملكتني الدهشة وأنا أتساءل عن سبب عودة الحياة إلى وجهي، أيعقل أن يكون بسبب يوم واحد قضيته بصحبة (نادر) بعيدًا عن الأحزان الكامنة بصدري؟ أم بسبب أنني وبدون قصد قد أثرت غيرة (إيهاب)؟ أم أن السبب لا هذا ولا ذاك وإنما بسبب ما تناولته يوم أمس من طعام؟

ألقيت على المرآة نظرة رضا، ثم هممت بالخروج وما إن فتحت الباب حتى وجدت (ندى) ترمقني بابتسامة مشرقة قائلة:

- صباح الخير.

بابتسامة أجبت:

- صباح الخير.

- جئت إليك لنذهب سويًا لتناول الإفطار

- هيا بنا فأنا مستعدة

هبطنا سويًا وشعرت بأن كل شيء حولي قد عادت إليه الحياة، وكانت جميع الأوجه حولي على مائدة الطعام تنظر إليَّ مبتسمة، وقد لاحظت اختفاء (إيهاب) وخمنت أنه قد ذهب إلى عمله مبكرًا، وعلى غير العادة تبادلت معهم الحديث بروح مختلفة ممتلئة بالحماس، إلى أن انطفأ حماسي دفعة واحدة حين رأيت (إيهاب) يخرج من حجرة مكتبه وتلك الشقراء اللعينة تتأبط ذراعه، اعتصر قلبي في مكانه وازدردت ريقي بصعوبة ومرارة حلقي تزداد وتتفاقم، حينها أدركت أن تلك السعادة كانت ظاهرية ومؤقتة، وأن الحزن ما زال يتربع بداخلي ولم يرحل بعد، تابعتهما بنظرات منكسرة وهما يتوجهان نحو المائدة.

بنفاذ صبر بذلت جهدًا كي أتمالك نفسي وأنا أرد لتلك الشقراء تحيتها، ومنعت نفسي قسرًا من صفعها صفعة مدوية تنزف لها دماء وجهها، رمقت (إيهاب) بانكسار لأجده ينظر إليَّ بتشفي وفهمت فورًا من نظراته ما يفكر به، إذ لطالما فلحت في قراءته فقد كان وما زال بالنسبة لي كتاب مفتوح أمتلك كل شفراته، زادت غصة حلقي وثقلت أنفاسي حين أدركت أنه يتعمد فعل هذا بي، يثير غيرتي وكأنما ينتقم لما حلّ به في الأمس، كاد عقلي يجن من فرط التفكير فإن كان يدري أني أحبه حد الغيرة فلِم

يعذبني بإرادته؟ لِم يشعل وجع صدري مرة أخرى بعد أن أخمدته قهرًا؟ أيتلذذ بعذابي أم ماذا؟ ألهذه الدرجة لا يبالي بما يجيش في صدري من مشاعر؟ أم أنه لا يبالي لأمري من الأساس؟

""صباح الخير ."

التفت كالملسوعة إلى مصدر الصوت إذ كانت نبرته الملتفة بالحماس والمرح مألوفة إلى سمعي، لم أكن لأتوقع أن أرى (نادر)، مما أثار دهشتي حين أبصرته يقف أمام المائدة ونظره مصوب نحوي وتزين محياه ابتسامة عذبة بعثت في نفسي بطريقة أو بأخرى شيئًا من الراحة، فانبثقت على شفتي ابتسامة خفيفة حال دون اتساعها ما يموج بصدري من أحزان.

دعاه عمي لتناول الإفطار معنا لكنه رفض متعللًا بأنه على عجلة من أمره، ثم أشار نحوي قائلًا:

- أريد فقط التحدث معها لعشر دقائق.

وتحت نظراتي المتسائلة أومأ له عمي بالموافقة، ثم قمت من مكاني يدفعني الفضول دفعًا لمعرفة ما الذي أتى بـ(نادر) اليوم، وخاصة أنه أخبرني أنه منشغل خلال هذا الأسبوع، رميت (إيهاب) بنظرة سريعة وأنا أجلس مع (نادر) في الصالون المقابل لهم، وبالرغم من أن نظره كان معلقًا في الصحن أمامه، ومن برودة الظاهري إلا أنه لم يفلح في أن يخفي

عنه غضبه المكتوم بداخله، وبرضا وجدت نفسي أشكر (نادر) بداخلي إذ جاء ليأثر لي، بدأ (نادر) الحديث قائلًا بغمزة من عينه:

- تبدين رائعة اليوم.

ابتسمت ردًا لمجاملته ولم أعلق، ولكنه أكمل بينما كان يدس يده بشعري وأزال الدبوس الذي أرفعه به:

- ولكن هكذا تبدين أكثر جمالًا.

نظرت إليه مأخوذة؛ فقد فاجأني ما أقدم عليه، ولكن سرعان ما وجدت نظراتي تتابع (إيهاب) كالمسحورة، لتقفز ابتسامة واسعة على شفتيّ ويعزف الفرح بداخلي موسيقاه حين لمحته ينظر اتجاهنا بملامح مكفهرة ينهشها الغضب.

مد إليَّ (نادر) يده بحقيبة صغيرة كانت بحوزته لم أنتبه لها قائلًا:

- هذه لكِ.

التقت منه الحقيبة فأكمل حين وجد مني نظرات متسائلة أفضحت ما يعتمر بداخلي من فضول:

- هذه هدية بسيطة أتمنى أن تنال إعجابك.

بلغ مني الفضول أقصاه حين سألت:

- ما نوعها؟

ما إن ألقيت سؤالي حتى وجدته يقفز من مكانه وكأنما لدغته حية قائلًا وهو ينظر إلى ساعة يده:

- لقد تأخرت كثيرًا يجب أن أذهب.

لم ينتظر مني ردًا وإنما خرج مهرولًا، بينما أخذت أقلب الحقيبة بين يدي بشيء من الفضول ممزوجًا بالشغف، هممت بفتحها ولكنى تراجعت عن ذلك، حين أبصرت (إيهاب) منهمكًا في الحديث مع والده ولم يلحظ ما أهداني إياه (نادر)، توجهت حيث يجلسون واستأذنت منهما أن أصعد إلى غرفتي بعدما تحقق ما كنت أرمي إليه، إذ أردت أن أجعل (إيهاب) يشتاط غضبًا حين يرى أن (نادر) قد حضر فقط ليجلب لي شيئًا ما، وأظن بأن هذا ما حدث حيث لمحت بعينيه نظرة فضول مغلفة بالسخط.

ما هي إلا دقيقتين وكنت أجلس على فراشي أخرج ما بداخل الحقيبة، فوجدتها علبة متوسطة الحجم تم تزينها بغلاف وردي اللون، وبشغف شديد أخذت في نزع هذا الغلاف والأسئلة تتفاقم في رأسي عن ماهية هذه الهدية، توقفت أنفاسي ثوانٍ معدودة، وفغرت فاهي بغير تصديق حين ظهرت أمامي علبة لهاتف محمول، وبانبهار ممزوج بالجزل أخذت أتفحص الهاتف بين يدي، وأتأمله بفرحة عارمة كطفل صغير أحضر له والده قطعة الحلوى التي لفتت نظره بعد كثير من الإلحاح، وفجأة جفلت وكاد يسقط الهاتف من يدي حين صدرت منه نغمة عالية، نظرت إليه لأجد شاشته مزينة باسم (نادر مجاهد) معلنة لي رغبته في التواصل معي، ضغطتُ بسرعة على زر الإجابة وكأنما أخشى أن يغير رأيه، وما إن وضعت الهاتف على أذني حتى أطربني صوته المفعم بالحماس:

- أتمنى أن تكون هديتي قد نالت إعجابك.

وكأن حماسه قد تسلل إليّ عبر الهاتف، أجبته بفرح قائلة:

- أعجبتني لأقصى درجة، شكرًا لك.

أجاب مازحًا:

- لا تخدعيني يا عزيزتي فأنا لست أحمقًا، يتوجب عليك شكري بطريقة مميزة.

علقت ضاحكة:

- اطلب ما تشاء.

أجاب بسرعة وكأنه قد أعد طلبه مسبقًا:

- عليكِ بقبول دعوتي للعشاء يومًا ما.

- ظننتك ستطلب شيئًا أكثر صعوبة

- سأرأف بحالك هذه المرة فقط، ولكن ما زال عليكِ إعادة المنديل الورقي الذي سبق وأن أعطيتكِ إياه.

تعالت ضحكاتي إذ لم أستطع منع نفسي من الضحك، وشاركني ضحكي، ثم قال بنبرة أكثر جدية:

- سأغلق الآن لأكمل عملي وسأهاتفكِ ليلًا.

- حسنًا

فقال بسرعة كأنما تذكر شيئًا هامًا:

- لا تتخليْ عن الابتسام.

أجبت وابتسامة واسعة تغزو وجهي:

- لا تقلق.

أنهيت معه المكالمة وأنا أتساءل كيف لهذا الرجل أن يرسم البسمة على شفتيَّ بتلك السهولة.

****

انقضت ثلاث أيام على نفس الشاكلة من الرتابة، لم ينقذني منها سوى مكالمات (نادر) لي بالإضافة إلى تلك الأوقات التي كنت أقضيها بصحبة (ندى)، كنت أبذل ما بوسعي لأتجنب التواجد مع (إيهاب) بنفس المكان، وكنت في وجبتيْ الإفطار والعشاء أتزرع الحجج لأبقى في حجرتي، إلى أن جاء اليوم الرابع طلبت مني (ندى) مرافقتها في شراء بعض الملابس، في بداية الأمر كنت أشعر بالنفور وعدم الرغبة في الذهاب لأي مكان، ولكن سرعان ما تغير رأيي حين طرأت برأسي فكرة راقت لي، إذ عزمت على شراء بعضًا من أدوات الرسم حين أذهب معها، حيث رغبت في الانتهاء من رسم لوحة لـ(فريدة) وأجعلها مفاجأة أهديها لـ(نادر)، علِّي أستطيع شكره على قليل مما يفعله معي.

ابتاعت (ندى) الكثير من الملابس بعدما جُبنا الألاف من المحلات إذ كان أمر إرضاء ذوقها صعب المنال، وحين ألحت عليَّ بالشراء رفضت متعللة أن بحوزتي من الملابس ما يكفيني بالإضافة إلى أن مزاجي لا يسمح بهذا

الآن، ثم سألتها إن كانت تعرف محلًا لبيع أدوات للرسم، أجابت بحماس بدد ما تشعر به من إرهاق:

- أتودين الرسم؟!

أجبت بفرحة وأنا أحاول جلب ملامح (نادر) المنتشية حين يفاجأ باللوحة:

- نعم.

سحبتني من يدى بفرحة عارمة وأخدنا نغذ الخطى، في حين ظلت تدمدم بكلمات التشجيع فقد راق لها أني سأعود إلى هوايتي ثانيةً، إلى أن وصلنا لمحل كبير يتألف من طابقين، كان يموج بشتى الأنواع من الألوان، وكافة الأحجام من الألواح، أخذت أجوب بينها مبهورة الأنفاس وكانت الألوان تبهرني كأعمى عاد إليه بصره، وبعدما اشتريت ما أنا بحاجة إليه خرجنا سويًا محملين بالحقائب، (ندى) تحمل ما ابتاعته من ملابس، وأنا أقبض على أدواتي بين يدي بسعادة عارمة كأم تحمل مولودها بين ذراعيها.

دلفت بحماسة إلى حجرتي، وضعت الأدوات التي كانت بين ذراعي بعناية فوق الفراش، وبخفة خلعت فردتي حذائي لأسمح لقدمي بالتنفس بعد يوم شاق ظلتا حبيستين داخله بعيدًا عن الأكسجين، بدلت ملابسي ببجامة مريحة من الحرير، وبالرغم من الألم الفتاك الذي كان يتربص بكل ذرة بجسدي، ورغبة جسدي العارمة بأخذ القليل من الراحة، وعيناي التي كانتا تتوسلان إليَّ كي أتركهما يغلقان بسلام، إلا أن حماسي المفرط لأنتهي من اللوحة في يومين اثنين قبل انتهاء الأسبوع وقف حائلًا

دون نومي، وبخفة خبير جهزت كل ما أنا بحاجة إليه، ثبت اللوحة وجهزت الألوان والأقلام بجانبي، وضعت صورة (فريدة) أمام ناظري، أصبح كل شيء جاهز، فلنبدأ إذًا.

وجدت نفسي أمارس هوايتي المحببة إلى قلبي ثانيةً، وانتشى عقلي في عالم الألوان الذي كان وما زال عالمًا عجيبًا مليئًا بالغرائب والمفاجآت بالنسبة لي، يدي تتحرك بخفة وكأنما خرجت عن إرادتي لتتحرك بفردها وانطلقت ترسم العينين، بينما كان عقلي يسبح في عالم آخر، عالم من الماضي فلم ولن يعد.

****

"ماذا تفعلين؟!"

التفت إليه فوجدته يقترب من اللوحة أمامي ويدقق في معالمها التي لم تظهر بعد، أجبته باستنكار قائلة:

- ماذا بك يا (إيهاب)، ألا ترى أني أقدم على رسم لوحة جديدة؟

تقدم مني خطوتين ثم طبع قبلة على جبيني ضخت الدماء بوجنتيَّ، وقال:

- أعرف، ولكن لمَ دائمًا ما تشردين حين تشرعين في الرسم؟

التفت إلى اللوحة أمامي وأكملت عملي بها قائلة:

- صدقني لا أعرف.

جذب كرسي ثم جلس بجواري وهو يسأل بمكر:

- إذًا أخبريني فيم كنتِ تفكرين؟

ابتسمت حين أدركت ما يرمي إليه، أجبت بخبث وأنا أنظر إليه بطرف عيني:

- أفكر في أشياء كثيرة، منها مثلًا ما أنوي رسمه الآن.

قطب جبينه ورد بخيبة أمل:

- كنت أنتظر ردًا آخر.

ضحكت ملئ شدقيَّ وأنا أراه يتطلع إلى اللوحة ببلاهة يحاول تخمين ما ستصير إليه:

- لم لا تسألني إذًا ما أنوي رسمه؟

مط شفتيه قائلًا:

- ولِمَ أهتم؟

بنفاذ صبر أجبت:

- كي تعرف ما أفكر به.

أشار برأسه إلى اللوحة قائلًا:

- يبدو أنك ترسمين شخصين يجلسان سويًا، ولكن لم تظهر ملامحهما بعد.

التفت إليَّ بابتسامة نصر، كمن أحرز هدفًا:

- ألست محقًا؟!

بابتسامة أجبته:

- بلى أنت محق، ولكن يجب أن تعرف أن هذين الشخصين هما أنا وأنت.

تهللت أساريره وقال بغبطة:

- إذًا أنتِ تفكرين بي، لمِ لا تقولين من البداية أيتها المراوغة؟!

أجبت وأنا أعود إلى الرسم:

- لا أظن أن المسلمات ينطق بها.

توقف سيل ذكرياتي وعدت إلى عالمي شعرت برضا حين وجدتني قد انتهيت من الوجه تمامًا، زفرت بتعب بعدما تفاقم الألم بجسدي، قمت بتثاقل لألقي بجسدي على الفراش وشهقت بفزع حين لمحت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بالكثير.

****

في اليوم التالي قبيل الظهر أيقظني صوت طرقات على الباب، سمحت للطارق بالدخول وكانت (بثينة) تحضر لي الطعام كعادتها في الأيام الماضية لا لشيء سوى تجنبي لرؤية (إيهاب)، رغم محاولات (نادر) الكثيرة بإقناعي أن أتعايش مع الأمر وأسمح لنفسي برؤيته كي أعتاد الوضع غير أني لم أمتلك من القوة ما يكفي لأعرض قلبي للوجع في كل مرة أراه فيها، تابعت (بثينة) وهي تضع الطعام ثم تنسحب بخفة كما لم تكن، وبعد العديد من المفاوضات مع الكسل قرر أخيرًا أن يتركني ويرحل، فنهضت من مكاني متوجهه للحمام واكتفيت بغسل وجهي أزيل عنه ما علق به من

آثار النوم، جلست أتناول الطعام بنهم وأنا أراقب اللوحة وقد راق لي ما أنجزته في ليلة واحدة، أما اليوم فيجب أن أنهي جسدها وغدًا أنتهي من اصباغها بألوان زاهية لتدب فيها الحياة، كم أتوق لرؤية (نادر) حين يراها! لابد وأنه سيسعد كثيرًا.

إن مجرد التفكير في كوني قد أفعل ما يدخل السرور إلى قلبه ولو لمرة، يجعل حماسي يتزايد وتتفاقم رغبتي في إنهائها اليوم قبل الغد.

انتشلني رنين الهاتف من ضجيج أفكاري، فازدردت اللقمة التي كانت في فمي بسرعة قبل أن ألوكها جيدًا، وقفزت إلى حيث الهاتف الملقى على "الكمود" بجوار السرير، وأجبت دون أن أنظر إلى المتصل حيث لم يكن هنالك غيره:

- كنت أفكر بك.

بدهشة سألني:

- حقًا، ولكن فيمَ؟

أجبت وأنا أحدق في اللوحة أمامي:

- أعد لك مفاجأة.

تغيرت نبرة صوته من الدهشة إلى السعادة قائلًا:

- ما هي؟

أجبت:

- بالطبع لن أخبرك فهي.....

قاطعني بحدة مكملًا كلامي:

- فهي مفاجأة وإن أخبرتك بأمرها لن تظل هكذا، نعم نعم أدرك هذا جيدًا، حسنًا أخبريني متى سأراها؟

بسرعة أجبته:

- بعد غد حين سنخرج للعشاء سويًا أنسيت؟

ضحك ضحكة تنتشي بالحياة مما تبعث دائمًا في نفسي البهجة، ليقول:

- ولِمَ بعد غد إن أردتِ يمكنني المجيء إليك غدًا قبل أن أذهب إلى العمل.

حركت رأسي نافية وغاب عني لوهلة أنه لا يراني عبر سماعة الهاتف، ثم أجبت بسرعة حين انتِهت:

- لن أكون قد أنهيتها بعد.

تنهدت تنهيدة خفيفة قائلًا:

- لو كان بمقدوري لكنت تركت العمل يذهب إلى الجحيم، وقضينا سويًا أوقات رائعة بعيدًا عن روتين الحياة الممل هذا.

ضحكت بشدة حين تيقنت أنه قال جملته هذه مصحوبة بغمزة، ثم علقت:

- لا أظن أن شخصًا مثلك يعرف الكسل.

أجاب بأسى:

- ولكنه يعرفني.

صمت قليلًا ثم أردف برجاء:

- أخبريني ما هي المفاجأة، وأعدك حين أراها سأتفاجأ كما لو لم أكن أعرف.

أجبت بحدة:

- (نادر) كف عن المزاح.

أطلق ضحكة صغيرة مجيبًا:

- حسنًا....حسنًا سأنتظر فماذا عساي أن أفعل؟

ما إن أغلقت الهاتف حتى اندفعت إلى اللوحة بحماس مضاعف، واصلت العمل بها النهار بطوله دون كلل أو ملل، جلستُ أمامها لا يزحزحني سوى ذهابي إلى الحمام أو جلوسي.

الفصل الثامن

ما إن أغلقت الهاتف حتى اندفعت إلى اللوحة بحماس مضاعف، واصلت العمل بها النهار بطوله دون كلل أو ملل، جلستُ أمامها لا يزحزحني سوى ذهابي إلى الحمام أو جلوسي مع (ندى) التي ما إن رأتها نطقت تعابير وجهها قبل أن ينطق لسانها بالإعجاب، مما زاد من حماستي واستثار نشاطي حد أنني رفضت الذهاب معها لتناول الغداء، وعلى هذه الشاكلة انقضى هذا اليوم والذي يليه إلى أن وقفت أمامها في نهاية اليوم حين أنهيتها تمامًا، بنظره رضا كنت أحملق فيها، واكتملت حينها سعادتي وتفاقم بداخلي شعور بالفخر لما أنجزته ولم تبرح الابتسامة شفتيّ، وكنت أتوق للحظة التي يراها فيها (نادر)، وأتوق أكثر لرؤية ابتسامته المرحة تلوح على شفتيه، وبقلب مطمئن ونفس ممتلئة بالرضا توجهت إلى الفراش أستعجل صباح الغد في القدوم

****

وقفت حائرة أمام الدولاب ولأول مرة منذ أن وطئَت قدماي هذه المدينة أفكر في التخلي عن طقوسي في ارتداء الملابس، فكرت في الظهور بمظهر جديد وكأني أريد لهذا اللقاء أن يكون جديدًا ومختلفًا من كافة النواحي، وبعد فترة ليست بالقليلة من التردد والتفكير وبعد أن قمت بإلقاء كل ما كان يحتويه الدولاب من ملابس على الفراش، استقر اختياري أخيرًا على

تنورة صفراء تقف عند حدود ركبتي، وبلوزة بيضاء بلا أكمام، ورميت شعري على كتفي ولم أرفعه، ابتسمت وأنا أتذكر حين قال لي (نادر) أنه هكذا أفضل،

نظرت لنفسي في المرآة نظرة رضا وقد نال مظهري استحساني، التفتُ إلى اللوحة الموضوعة فوق الفراش خلفي وأمسكتها بحرص شديد كما لو كانت قطعة نفيسة أخشى عليها الخدش، هاجمني الضحك حين تذكرت (ندى) وهي تساعدني في تغليفها وقد أبدت استنكارها من كبر حجمها وأخذت تدمدم بامتعاض " لِمَ لم تكتفِ بلوحة أصغر حجمًا؟"

رن هاتفي وكان (نادر) يبلغني بوصوله وانتظاره لي بالأسفل، فتوجهت نحو الباب ممسكة اللوحة بإحكام وما إن وضعت يدي على مقبض الباب التفت بتردد إلى أدوات التجميل التي تزين التسريحة ولم أستعملها يومًا، ثم توجهت نحوها بخطوات واسعة فلا بأس بقليل من الحيوية والتأنق إلى شفتايَ، خرجت من الغرفة ورحت أغذ الخطى وهبطتُ الدرج بخطوات واسعة يدفعها حماسي، وجدت عمي يجلس بالصالون برفقة (إيهاب) الذي تظاهر بانهماكه في قراءة كتاب بين يديه، ألقيت عليهما التحية وقد تعمدت إظهار الفرح بنبرة صوتي، وبخبث استأذنت عمي لأذهب مع (نادر) بالرغم من علمه بهذا مسبقًا إذ قال له (نادر)، إلا أنني لم أكن لأضيع فرصة مثل هذه كي أشعل نيران الغيرة بصدر (إيهاب).

حين خرجت من المنزل أبصرت (نادر) يقف واضعًا يديه في جيبه مستندًا إلى سيارته وقد بدا شاردًا، وما إن دنوت منه حتى انتبه لوجودي فاعتدل في وقفته وبنظرة مبهورة أخرج يده من جيبه ليرفعها أمامه في حركة متعجبة قائلًا:

- من أين لكِ بكل هذا الجمال؟ هل ابتعادي عنك يزيدك جمالًا؟

أكمل غامزًا:

- إن كان هذا حقًا فأنا على استعداد بأن أبتعد عنكِ أكثر وأكثر

سألته بينما أتأمل هيئته التي بدت جدية إذ كانت المرة الأولى التي أراه يرتدي حلة سوداء أنيقة ذات لمعة أظهرها ضوء القمر، وكانت ابتسامته الصافية وغمازته التي تزين وجنته تجعلانه يبدو أكثر وسامة:

- وأنت من أين لك بكل هذه الأناقة؟

اعتدل بفخر في وقفته وقال باعتداد:

- عزيزتي هذا بعض مما لدي.

رفعت أحد حاجبي دهشة قائلة باستنكار:

- حقًا؟!

ليجيب بثقة:

- بالطبع.

ثم هم بفتح باب السيارة لي، إلا أنه توقف حينما لمح اللوحة بيدي فأشار إليها قائلًا بتساؤل:

- ما هذا؟!

سلمتها له وبحماس أجبته:

- إنها المفاجأة التي أخبرتك بها.

أخذها مني ببطئ وعيناه لا تبرحان عيني، واختفت ابتسامته وحل محلها علامات الدهشة والتساؤل، انتقل بنظره إليها، ثم زم شفتيه وبدا متوجسًا وقبل أن يزيح عنها غلافها نظر إليّ نظرة لم أفهم معناها قائلًا:

لا تقولي أنكِ قد رسمتي لوحة لأمي

خاب أملي حينما لم أجد في ملامحه ولا نبرة صوته ما يشي بالفرح، وتفاقمت الأسئلة برأسي لا أدري إن كان يريد الذهاب معي لدى شرائي للأدوات المطلوبة، أم أنه أراد أن يتابع رسمها خطوة بخطوة؟! ولكن أيًا كان ما يريده فأنا لم أشأ سوى أن أفاجئه، فأجبت بصوت منكسر:

- بلى، لقد رسمتها.

أجفلت حين وجدت نفسي فجأة محاطة بذراعيه، وما إن انفلتُ من بينهما حتى تابعته بدهشة وهو يقفز في الهواء بجزل كالأطفال مُظهرًا سعادته وكان يصيح بكلمات غير مفهومة طارت في الهواء، فما كان مني إلاأن انفجرت ضحكًا على سلوكه الغير متوقع هذا، ثم استقر أمامي لاهثًا وبعينين لامعتين ببريق السعادة قال:

- لا تدركين مكانة هذه المفاجأة لدي.

كان صوته ينبأ ببكاء قادم على عكس ملامحه التي كانت تنطق بالسعادة، فابتسم داخلي وأنا أجيبه:

- لم أتوقع أنك ستفرح هكذا.

فأجاب بتأثر وهو يلتقط اللوحة بين يده، ويمشى بأصابعه فوقها كأنما يرى ما بداخلها من خلال لمسته:

- لم يتسن لي رؤيتها، لذا فأنا دائمًا ما أجمع لها الصور وأقوم بتكبيرها، وهذه المرة الأولى التي أفكر بأن أطلب من أحد رسمها لي.

تطلع إليَّ بامتنان، ثم واصل مراره ساخرة:

- وكأنني بهذا أعوض عن غيابها.

شعرت بغصة في حلقي وسرت رعشة خفيفة بجسدي، وأنا أرى أمامي جانبًا جديدًا في هذا الرجل الذي بدا وكأنه شخصًا آخر، شخص قد ترك فيه الحزن أثرًا لم تفلح الأيام في محوه، وكما لو كانت مشاعره لصدقها كالعدوى إذ انتقلت إليَّ لأجد أنني ولأول مرة منذ زمن بعيد أتذكر أمي التي رحلت وتركتني حينما كنت في السابعة من عمري، دمعت عيناي وأنا أشعر أنني الآن في أمس الحاجة إلى حضنها يبعث فيّ الأمان الذي أفتقده، الأمان الذي رحل برحيل أبي ليحل محله الخوف والألم والاضطراب.

"ماذا يا آنسة، لِمَ هذه الدموع الآن؟ "

قالها (نادر) وقد عاد الحماس إلى صوته، فابتسمت له قائلة وأنا أحاول أن أضفي قليلًا من مرحه إلى صوتي:

- لا شيء، ألن نذهب؟

أشار بابتسامة سامحًا لي بالركوب، ولكني لمحته حين كنت أجلس بداخل السيارة ينظر إلى نقطة خلفي وقد انعقد جبينه، انتظرت حتى استقر بجواري فسألته:

- ماذا حدث؟

فأشار برأسه نحو المرآة بجواري، وقال وهو يدير محرك السيارة:

- انظري، إن (إيهاب) كان يراقبنا من وراء شرفته.

بسرعة التفت نحو المرآة أنظر إليه، فدق قلبي بسعادة وقفزت ابتسامة عريضة على شفتاي، وصاح عقلي بجنون:

- ما زال وسيظل يحبك وحدك.

****

عدنا بعد ليلة مختلفة زاد من جمالها وروعتها ذلك الـ(نادر) فحقًا هو (نادر) فعلًا، يزيد من إعجابي له حماسه المتقد، وروحه المثيرة وبهجته التي تشع من ابتسامته، ونظرته المختلفة للأمور إذ يرى كل شيء بالحياة جميل ذلك أن له نفس جميلة يفوح عطرها المنعش ليغطي كل الأشياء حوله، جاء معي ليقابل عمي فيخبره بأمر دروس العزف، ولكن ما إن ترجلنا من السيارة حتى تفاجأتُ بـ(إيهاب) الواقف أمام الباب عاقدًا يده خلف ظهره، يرمقنا بوجه صُبِغ باللون الأحمر فأدركت أنه قد وصل من الغضب أقصاه، تسرب الخوف إليَّ فأنا أعرف كيف يصبح (إيهاب) ضاريًا

كالوحوش حين ينتابه الغضب، ازدردت ريقي بصعوبة حين أبصرت (نادر) يتقدم نحوه وحياه بفتور، زادت دقات قلبي حين حدق فيه (إيهاب) بحدة ولم يرد تحيته، وبعد ثواني ثقيلة من الصمت القاتل وقع قلبي بين قدميّ حينما توجه (إيهاب) بنظره نحوي قائلًا من بين أسنانه المطبقة:

- أريد التحدث معكِ.

بشجاعة لا أعرف مصدرها أجبته:

- لا يوجد ما نتحدث بشأنه.

انتفضت كل ذرات جسدي بفزع وهو يصرخ:

- قلت أريد التحدث معكِ، لِمَ الجدال؟

لم يتسن لي الوقت لأجيبه إذ اندفع (نادر) نحوه بغضب وصاح به وهو يمسك بياقته:

- لِمَ الصراخ الآن؟

أزاح (إيهاب) يد (نادر) من على قميصه وقال بينما ظهرت عروقه وهو يزيد من إطباق أسنانه:

- لا دخل لك أنت، لِمَ لا تدعها وشأنها....ها؟

تسارعت أنفاسي وكاد قلبي يقف من فرط سرعته، لا أستطيع استيعاب ما يحدث بعد، ولكن كل ما أعرفه أن الأمور ليست على ما يرام، تملكني الخوف ولكن (نادر) هدأ من روعي قليلًا حينما تجاهل (إيهاب) ونظر لي مطمئنًا وبشبح ابتسامة قال:

- اذهبي أنتِ إلى غرفتك.

تسمرت مكاني ولم أدرِ ما عليَّ فعله، نظرت إلى (إيهاب) بتوجس كأنما أنتظر منه الإذن أولًا فوجدته ما زال ينظر لـ(نادر) بوجه مكفهر، أتى صوت (نادر) مرة أخرى:

- هيا ماذا تنتظرين؟

وحين لم أجد تعليقًا من (إيهاب)، استجمعت شجاعتي وبخطوات مرتعشة انطلقت نحو المنزل وكادت قواي تخور من فرط مخاوفي ولكني تحاملتُ على نفسي واعتدلتُ في سيري، وما إن دخلت المنزل حتى هرولت إلى غرفتي وكأن شبحًا ما يطاردني، دلفتُ إلى الغرفة بقلب مفزوع وروح مضطربة، وبأنفاس تتسابق مع الزمن، وضعت يدي على صدري الذي لم يكف عن صعوده وهبوطه أهدئ من روعه، وعقلي يكاد يجن من فرط التفكير، ترى ماذا يفعلان؟ كيف سيتصرف (نادر) مع (إيهاب)؟ هل سيتشاجران؟ ماذا إن أصاب أحدهما مكروه؟ لابد وأن (نادر) سيوضح لـ(إيهاب) أننا لسنا سوى صديقين، ماذا إن لم يصدقه (إيهاب)؟

أمسكت رأسي بشدة أتوسل إليه بأن يكف عن ضجيجه، أخذت أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، لا أترك الهاتف من يدي إذ بين الدقيقة والأخرى كنت أدق رقم (نادر) فيأتي صوت الرنين المزعج دون كلل أو ملل إلى أن ينقطع صوته تمامًا دون أن يجيب (نادر)، وبينما كنت أعيد المحاولة انتفض جسدي بذعر وأجفلتُ حتى كاد الهاتف يسقط من يدي حين دق

الباب بشدة مفزعة، بعينين زائغتين تطلعت إليه برعب وكأن شبحًا ما يقف خلفه، بخطوات خائفة مضطربة توجهت نحوه، وبحذر فتحته فوجدت (إيهاب) واقفًا خلفه ينظر إليّ بعينين صبغتا بلون الدم، وجبين مقتضب وملامح يغزوها الغضب تراجعت للخلف خطوتين بينما تقدم نحوي خطوة واحدة ثابتة، وهو يحدق في بثبات ظاهري وبداخله بركان أظنه سيثور في أية لحظة، مد يده وأغلق الباب خلفه بهدوء وما زال نظره مثبت نحوي، وأتى صوته وبدا لي مخيفًا:

- ابتعدي عن (نادر).

باستنكار مصحوبًا بالسخط أجبته:

- لِمَ؟

انسحبت أنفاسي حينما تفاجأت به يضرب الدولاب بيده، وقد احتقن وجهه بالدماء، ثم رماني بنظرة متوعدة، وقال:

- لا أريدك معه وانتهى الأمر.

بالرغم من الخوف الذي أثاره (إيهاب) داخلي، إلا أن الدماء قد فارت برأسي وبدأت غليانها، فأجبت بتحدٍ:

- أخبرتك من قبل أن لا شأن لك بي، سأفعل ما أريده ولا يحق لأي مخلوق التدخل فيما أفعله.

وفى لحظة واحدة كان يمسكني من ذراعي بقوة آلمتني، بدا لي شخصًا آخر غير (إيهاب) الحنون الذي أعرفه، رمقني بنظرة جعلت قلبي يقفز بذعر،

اضطربت أنفاسي وجاهدت في إخفاء ما يعتمل بصدري، ولكن دموعي خذلتني وكشفت عن ضعفي حينما اندفعت من مقلتايَ بغزارة، لأستمع له يقول:

- لا يحق لكِ فعل ما يؤذيني، أنصتي إليّ جيدًا يا(ملك)...

صمت للحظة، ثم أكمل بنظرة متوعدة ونبرة قاسية لم أعهدها في صوته من قبل:

- إن لم تبتعدي عن (نادر) فلا تلومين أحدًا غيرك لما قد أفعله به.

قطبت جبيني بتفكير وبخوف بدا واضحًا بنبرة صوتي سألته:

- ما هذا الذي تقوله؟

أفلت ذراعي بعنف ورد بنبرة أكثر قسوة:

- أقول أنك إن لم تبتعدي عنه فسأبذل ما بوسعي لإيذائه، وكما قلت فأنتِ هي السبب.

حدقته بصدمة وسألته مستفسرة:

- لن تستطيع إيذاؤه فهو صديقك.

بغضب هادر صرخ بوجهي حتى ارتعدت أوصالي:

- كان صديقي أما الآن فهو عدوي الوحيد أفهمتِ؟

تملكني الخوف وأنا أراقب غضبه الذي بلغ ذروته وتخطاها، وبصوت مرتعد سألته:

- كيف ستؤذيه؟ أنت لا تستطيع إيذاء أحد.

أطرقت بحزن ثم رفعت نظري نحوه وأكملت بأسى:

- سوايَ.

انفجرت منه ضحكة مدوية، جعلتني أحدق فيه بدهشة ممزوجة بالسخط، وضع يده على صدره كعادته عندما يضحك، نظر إليَّ وغلالة من الدموع تملأ عينه من أثر الضحك، وبصوت يخلو من المزاح قال:

- بلى أستطيع، وهذا أمر سهل.

ثم نظر إلى أظافره عاقدًا جبينه كما لو كان يفكر في أمر ما وأردف بخبث لم أظن يومًا بأن (إيهاب) يمتلكه:

- بالطبع لن أؤذيه جسديًا أو شيء من هذا القبيل، ولكني أستطيع إيذاؤه في عمله، أو مثلًا أزج به في السجن وهذا بالنسبة لي أمر يسير.

بلغ خوفي أقصاه حتى كاد يعتصر قلبي ولكن هذه المرة ليس خوفًا من (إيهاب) فقط، بل خوف على (نادر)، فهو لا شأن له بنا لا يستحق أن يصاب بأي أذي حتى وإن كانت قرصة بعوضة، ولكن هل سيقدم (إيهاب) على فعل شيء مما يقوله؟ بالطبع لا فأنا أعرفه حيدًا، فهو يملك قلبًا نقيًا لا يستطيع أن يؤذي غيره، إنها فقط لحظة من لحظات غضبه التي تحوله إلى شخصًا آخر أكثر قسوة، وسرعان ما سيهدأ ويعود إليه عقله، بثبات قلت له:

- لا أصدق أنك قد تفعل هذا.

بهدوء مخالف تمامًا لما كان عليه من لحظات:

- لا يهم، لقد حذرتكِ وانتهى الأمر.

هممت أن أعلق على كلامه ولكن الحروف علقت بحلقي وانعقد لساني حين علا صوت رنين هاتفي، تجولت نظراتي الحائرة بين الهاتف و(إيهاب) الماثل أمامي، تجمدت أوصالي وشلت أطرافي فلم أستطع أن أحرك ساكنًا، إلى أن رحل (إيهاب) دون أن يزيد كلمة واحدة، لابد وأنه لم يعرف أن (نادر) هو المتصل وإلا لما كانت هذه ردة فعله، وما إن خرج حتى أسرعت نحو الباب أغلقه خلفه وأجبت على الهاتف ألتقط أنفاسي وكأن الأكسجين كان منسحبًا في حضرة (إيهاب)، وبصوت يشوبه البكاء أخذت أقص على (نادر) ما دار بيني وبين (إيهاب) وكيف حذرني إن لم أبتعد عنه، لتأتيني ضحكته القصيرة ويعلق بسخرية:

يا (ملك) لم كل هذا الخوف؟ كل ما قاله ليس إلا مجرد هراء.-

لفظ كلمته، ثم انفجر ضاحكًا قبل أن يكمل:

- هو فقط لا يريد أن يراكِ تستمتعين بوقتك دونه، يريد رؤيتكِ عاجزة ضعيفة في بعدك عنه.

علقت بصدمة وأنا أجلس على الفراش بعد أن خارت قوايَ:

- ما الذي تقوله؟

- ماذا؟ ألست محقًا؟

- بالطبع لا، فـ(إيهاب) يشعر بالغيرة ليس إلا.

سمعت صوته يتنهد بعمق، ثم علق بهدوء:

- إن كان يحبك حقًا فلِمَ تخلى عنكِ بهذه السهولة إذًا؟ لِمَ ذهب إلى غيرك وتركَكِ تعانين؟ لِمَ يريد الزواج من أخرى ويكمل حياته بينما تظلي أنتِ في متاهة أحزانه لا تستطيعين الخروج منها؟

كانت أسئلته تصيبني في مقتل، ليس فقط لأنني أخشى أجوبتها بل أيضًا لأني لم أجرؤ يومًا على أن أسأل نفسي إحداها، لأني ببساطة إذا بحثت عن إجابة لها لن تكون سوى أن (إيهاب) لا يحبني حقًا، غاص قلبي بين ضلوعه حين راودني هذا الخاطر، فعلقت بسرعة وكأنني أنفي تهمة عن (إيهاب) أو أبحث له عن عذر لم أقتنع به حتى:

- هو فقط لا يريد أن يؤذي (سارة) أو يجرح شعورها.

ضحك بتهكم وقال بسخرية لاذعة:

- يا له من سببٍ كافٍ!

صمت وطال صمتي وبداخلي نار تتأجج يصعد لهيبها إلى مقلتيَّ فتفرز دموعًا مالحة لتخفف من حرارتها، ولكنها كانت تزيد من حرقتها وتهبط على وجهي ساخنة تكويه بعنف، وكما لو شعر بلهيب حزني فأراد أن يخفف حدته، فغير مجرى الحديث قائلًا:

- لا تنسي موعدنا غدًا مع أول دروس العزف فأنا لا أحب الإهمال أو التكاسل في المواعيد.

كفكفت دموعي وقد عزمت على المضي قدمًا بصحبة (نادر)، بعد أن رميت بتحذير (إيهاب) عرض الحائط، فلا يستحق مخلوق مهما كانت مكانته بقلبي أن يجعلني أخسر شخصًا رائعًا كـ(نادر)

****

مر أسبوعان تعلمت فيهما العزف على البيانو حتى أتقنته، كنت أذهب يوميًا بصحبة (نادر) إلى منزلهم الذي أصبح محببًا إلى قلبي أكثر من ذلك الذي أقيم فيه، حيث كنت أقضي ساعات النهار في التعلم برفقة (نادر) الذي كان يتحيّن الفرص كي ينتزع مني الضحك انتزاعًا، وكنت معه أعود طفلة لا تبالي لشيء فقط تستمتع بكل شيء وتضحك على نكاته ملئ شدقيها، احتفل بإنجازي حين أُتقن معزوفة ما، ثم نعزفها معًا، وكنا حين نمل العزف أو يمل منا نجلس ثلاثتنا أنا و(نادر) ووالده الذي تعلقت به بشدة وتوطدت العلاقة بيننا كأب وابنته، نستمتع بارتشاف الشاي المصحوب بالكعك الذي كانت نكهته تتغير في كل مرة عن سابقتها، وكان يروق لي كثيرًا تناوله بنهم بينما كنت أراقب الأب وابنه وهما يتنافسان في لعب الشطرنج، وفي كل مرة كنت أنفجر ضحكًا حتى تدمع عيناي عندما يخسر (نادر) ويتذمر كالأطفال متهمًا والده بالتحايل في اللعب، ودائمًا ما أطلب أنا يلاعبني أحدهما فيضحك (نادر) سخريه ويردد مثيرًا غيظي " يكفي أن تشاهدي فقط عزيزتي، فهذه اللعبة للأذكياء فقط أمثالي."
لأنهال عليه ضربًا ويغرق هو في ضحك يغرق أنفاسه.

وفي يوم أيقظني مبكرًا من نومي برنينه المستمر دون كلل أو ملل، فأجبت بصوت يغلبه النعاس ليأتيني صوته مفعمًا بالحماس:

- أمامك خمس دقائق لتكوني أمامي الآن، هيا انهضي فأنا أنتظرك بالأسفل.

ألقى جملته وأغلق الهاتف دون أن ينتظر ردي، فنظرت إلى الهاتف بدهشة أفرك عيني وأغمضها وأفتحها مرارًا لأتأكد من أن هذا ليس حلمًا، قفزت من الفراش كما لو أنني قد أصبت بماس كهربي، ولا أدري كيف ارتديت ملابسي وخرجت من الغرفة وأصبحت أمامه في ظرف دقيقتان وليس خمس كما قال، فقط كان الفضول يدفعني دفعًا، كان ينتظرني بابتسامة زادت من وسامته فدنوت منه متسائلة:

- ماذا هناك؟ ولِمَ أحضرت السيارة؟

جذبني من ذراعي وبدا على عجلة من أمره وفتح لي باب السيارة لأدلف إليها وأنا مدهوشة، تابعته بذهول وهو يأخذ مكانه بجواري وما إن تحركت السيارة التفت إليَّ بابتسامة واسعة وغمازة ملفتة تغوص في وجنته:

- أردت أن نذهب سويًا لتناول الإفطار في مطعم ما.

باستنكار شديد قلتُ:

- ماذا؟! كل هذه العجلة فقط لتناول الإفطار!

ببرود متناهي أجاب:

- نعم

نظرت أمامي وعلقت بنفاذ صبر:

- ولكنني حتى لم أخبر عمي.

غمز قائلًا:

- أنا فعلت.

بجنونه المعتاد نفذ ما أراده، ولم يكتفِ فقط بوجبة الإفطار بل تناولنا معًا الثلاث وجبات، إذ قضينا اليوم بأكمله نجوب أرجاء المعمورة ولبس دور المرشد لجهلي للمدينة، وبالرغم من الأماكن الرائعة الكثيرة التي أخذني إليها إلا أن أكثر ما قد راق لي هي بضع الساعات التي قضيناها آخر اليوم أمام النيل، فحب الماء يسرى بدمي، وكانت نسمات الهواء المحملة ببرودة طفيفة تذكرني ببحر الإسكندرية وهواؤه الذي لطالما داعب وجهي ولاعب خصلات شعري، حاولت كبح جماح ذكرياتي عند هذا الحد، كي لا تطرق إلى تلك الأيام التي تلوح لي الآن كحلم لم يتحقق عندما كان والدي و(إيهاب) يملئان حياتي ولا أفكر بسواهما، ولكن كما المتوقع باءت محاولاتي بالفشل وطفرت دمعة ثقيلة بين جفني أثقلت قلبي، التفت إليّ (نادر) حين شعرت بيده على كتفي وكأنما أدرك ما يفعله النيل بذكرياتي ليقول:

- أنعود؟

أومأت بصمت وانطلقنا عائدين وفي طريق عودتنا هاتف عمي (نادر) وطلب منه أن يأتي معي إلى المنزل إذ يريد إخباره بأمر هام.

****

شعرت بضيق في صدري لا أعلم سببه حين وجدتهم يجلسون معًا بانتظارنا، زاد انقباض قلبي حين رأيت تلك الشقراء في فستان أزرق قصير تجلس بجوار (إيهاب) تعلو فمها ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان ناصعة البياض تخرج لي لسانها فتزيد من حنقي، انضم إليهم (نادر) بعد أن ألقى عليهم التحية وما زلتُ واقفة مكاني بلا حراك، فدعاني عمي للجلوس، جاء نصيبي أن أجلس أمام (إيهاب) مباشرة لأجده يرمقني بنظرات لم أفهم معناها ولكنها في كل الأحوال لم تكن تشي بخير على الإطلاق، فبدأ عمي الحديث موجهًا كلامه لـ(نادر)

لقد طلبت منك الحضور يا (نادر) كي تخبر والدك بأمر هام قررناه اليوم على عجل.

اعتدل (نادر) في جلسته باهتمام وأجاب بابتسامة:

- بالطبع سأخبر ولكن ما هو هذا الأمر؟

تنحنح عمي استعدادًا للإجابة ولم يخف عني ذلك التوتر البادي في قسمات وجهه، ولكن (إيهاب) بادره وبنبرة قاسية خرجت كلماته كالسهام تشق طريقها شقًا إلى قلبي فتهاجمه بشراسة ليئن بوجع وهو يقول:

- لقد قررت إقامة حفل زفافي الأسبوع القادم.

زلزال مدوي أصاب روحي، وزلزل كياني، وتناثرت أشلائي، بعينين زائغتين وعقل غائب لا يريد استيعاب ما قد قيل أخذت أحدق بـ(إيهاب) أبحث في ملامحه عن شيء ينبأ بمزاح ثقيل، فلم أجد سوى ضحكة مميتة ترتسم فوق شفتيه، جعلت قلبي يزرف دموعه، وأنفاسي تثقل وصدري يُغلق يأبي دخول المزيد من الهواء إليه، فتخور قواي ويعجز قلبي عن إكمال مهمته في ضخ الدم، لتبهت الألوان حولي وتخفت الأصوات، وتبتعد الأوجه شيئًا فشيئًا إلى أن ينتهي كل شيء!

الفصل التاسع

صداع عنيف يغزو رأسي عنوة دون أدنى مقاومة منه، ألم شديد يتفشى بجسدي تجعل كل ذرة به تنتفض ألمًا وتئن وجعًا، أفتح عيني بصعوبة وحذر شديدين ليداهمني ضوء فيؤلماني بشدة وأعاود إغلاقهما بفزع وأشعر بألم جسدي قد تضاعف، انتبهت حواسي حين التقطت أذنايَ صوت (ندى)، فاطمأن قلبي وشيئًا من الأمان سرى بأوصالي، وبعد لحظات استجمعت بها شجاعتي عدت أفتح عيني مرة أخرى ولكن أكثر بطئًا وحذرًا، وبشيء من الخوف تحملت ذلك الألم الذي يسببه الضوء لهما، تجولت بعيني لأجد أنني محاطة بعدد من الأوجه تتباين ردة فعلها ما بين التوجس والترقب والبكاء والفرح، وكان جسدي ممدًا على فراش يتصل به العديد من الأجهزة، وكثير من المحاليل الطبية التي توفر لجسدي الواهن الغذاء اللازم لإبقائه على قيد الحياة، اعتصر الألم قلبي وتناثرت بقايا روحي حين لم أجد أحب وجه إلى قلبي، كان الجميع حاضرون إلا هو، التفت إلى (نادر) حين ضغط بقوة على يدي وعلامات الذعر جلية على وجهه، وبخوف سألني:

- أتسمعيننا؟!

أدركت حينها أنه كان يحدثني ولم ينتبه عقلي له، قاومت ألم جسدي وتناسيت صداع رأسي وبوهن أجبته:

- أسمعكم.

زفر براحة وعادت بسمته، لتقول (نجوى) وقد تراقصت دمعة بعينيها: - قلقت عليكِ كثيرًا بنيتي، حمدًا لله على سلامتك.

لتعلق (ندى) من بين دموعها:

- قتلني الخوف حين قال الطبيب بأن غيبوبتك قد تطول أكثر

لم أفهم ما كانت تقوله (ندى)، عن أي غيبوبة تتحدث؟

منعني تعبي من الاستفسار، بالإضافة إلى تعليمات الطبيب بأنني بحاجة إلى الراحة، فرحل الجميع وبقى (نادر)، جلس بجواري ممسكًا يدي وكأنما يريد إخباري بأنه لن يتخلى عني مهما حدث، نظرت إليه بأعين دامعة ولساني لا يقوى على الحراك أود أن أستفهم منه عما حدث، وكما لو كان يشعر بعجزي، حرك رأسه بأسى وقال كأنما يقرأ من تقرير أمامه:

- ارتفاع في ضغط الدم يؤدي إلى غيبوبة لخمسة أيام، أيّ لعنة حب هذه التي تفعل بكِ كل هذا؟

دهشت لما قال ولم تخف عنه دهشتي، فقد ظننت أنها مجرد إغماءة خفيفة وأفاقوني بالمشفى، زادت مرارة حلقي وأخذت الدموع تتكثف بين جفنيَّ، أحدق بـ(نادر) الذي كان يشاركني الحزن بصدق ظهر جليًا في ملامحه، تجاهلت ذلك الألم الذي يكاد يفتك برأسي، وبصوت مخنوق ولسان ثقيل سألته:

- هل حقًا سيتزوج؟

أطبق على يدي بشدة، وبنظرة قاسية لاحت من عيناه أجاب:

- نعم، سيتزوج من أخرى ولن يبالي بكِ، لِمَ لا تنسينه إذًا؟

الأمر في غاية البساطة هو لا يحبك ولا يستحق ذرة من حبك له، لو كان حقًا يحبك لما فعل بكِ شيئًا من هذا.

كانت دموعي كالسيول وهي تجري على وجهي دون توقف، يتمزق قلبي وأنا أستمع إليه ونبرة صوته تعلو بغلظة مؤلمة، أعلم أنه يوّد مساعدتي على التعايش مع الأمر، ولكنه لم يكن على دراية أنه ينشر السموم على جروحي فيضاعف وجعي، صمت (نادر) وصمتت الغرفة إلامن صوت شهقاتي، أشعر بشراييني تكاد تنفجر ألمًا، وقلبي يموت وجعًا، وهذا الثقل فوق صدري يتضاعف مع كل دمعة تذرفها عيني،

امتدت يد (نادر) خلف رأسي، وبيده الأخرى كوب ماء ساعدتني لأرتشف قليلًا منه، وبحنان لامسته بيده حين مدها يكفكف دموعي، وبنظرة يغلفها الحزن قال:

- سامحيني أرجوكِ فلم أقصد أن أكون فظًا معك.

ابتسمت بمرارة وبسخرية علقت:

- أهكذا تكون فظا! أرجوك لا تعتذر، من دونِك لا أدري كيف كنت سأواجه كل هذا الألم.

التقط يدي بين كفيه وشد عليهما قائلًا:

- صدقيني بي أو بدوني أنتِ أقوى من كل هذا، فقط اعقدي العزم بأن تتخطي كل ما يحدث الآن، وابدئي من جديد وكأن شيئًا لم يكن.

سحبت نفسًا عميقًا زفرته بقوة أتوسل كل ذرة بجسدي أن تُخرج ما بها من ألم ووجع مع هواء ذلك الزفير، علقت بأسى:

- سبق وحاولت، ولم أفلح.

شدد على يدي وأجاب بحسم:

- ستحاولين مجددًا وزفاف (إيهاب) هو البداية.

اختنق قلبي بين ضلوع حين قال زفاف، وكأنني أسمعها لأول مرة أخذ عقلي يفكر بـ(إيهاب) وقلبي يشهد على كل شيء، أبعد كل هذا سيكون لأخرى! كيف سيقدر على العيش مع امرأة غيري؟ لا يستطيع عقلي تصديق بأنه أقدم على فعل شيء كهذا، ألم يؤنبه ضميره على خيانتي بهذا الشكل المفجع؟ أم أنه لا يظن بأنه يخونني من الأساس؟ ألم يحمل لي قلبه شيئًا من الحب؟ أكانت علاقتنا عابرة بالنسبة له، وينتظر فرصة ينتهزها ليبتعد عني ويذهب لأخرى؟! كيف له أن يكون بكل هذا الجحود؟ كيف يراني أتألم وأتعذب بسببه ويذهب عني دون أن يلتفت وراءه إلى تلك الجثة الهامدة التي قتلها حبه؟!

مددت يدي أزيل تلك الدمعة التي تتمايل فوق خدي بتردد، التفت إلى (نادر) وبعزم زاده شعوري بالغل قلت:

- سأقتلع (إيهاب) من قلبي مهما كلفني الأمر.

عدت إلى المنزل بعد قضاء ليلتين راقدة بالمشفى لم ينقذني من وحشيتهما سوى (نادر) الذي لم يتركني لحظة واحدة، حتى في الأوقات التي تأتي فيها (ندى) كان يستغلها بالنوم قليلًا ويأبى الرحيل، وبينما كنت أتناول الطعام في غرفتي بصحبة (ندى) التي أصبحت تشاركني الغرفة علا رنين هاتفي فأجبت وأنا ألوك الطعام في فمي:

- مرحبًا (نادر).

- أتحبين ركوب الدراجات؟

- ماذا؟

- ألا تستطيعين؟

- بلى أستطيع، ولكن لِمَ؟

- أنتِ كثيرة الأسئلة دائمًا، كفي عن طرح الأسئلة وتعالى في الحال أنا بانتظارك.

وكعادته حين يقرر شيئًا ما....أغلق الهاتف قبل أن أجيبه، فأخذت أنقل نظراتي المندهشة بين الهاتف بيدي ووجه (ندى) الذي يكسوه البلاهة وعدم الفهم، ثم قفزت من مكاني وقلت لها في حين أتوجه نحو الباب:

- سأذهب للقاء (نادر).

وجدته بانتظاري في الأسفل مما زاد دهشتي؛ إذ ظننته ينتظرني بمنزله، وما إن دنوت منه فوجئت به يجذبني من يدي قائلًا:

- هيا بنا.

خرجنا من المنزل يسبقني بخطوات واسعة وأنا خلفه يتعجب حالي من تصرفاته المفاجئة التي لا تنتهي، سحبت يدي من يده بقوة وقلت بحدة:

- لِمَ دائمًا أنت على عجلة من أمرك هكذا؟

فأجاب بابتسامة:

- أتعجل الأوقات التي أكون بها معكِ.

أسعدني جوابه وإن كنت قد شعرت بوخزة وجع بمكان ما بقلبي، فكان هذا الجواب ليطيرني فرحًا ويحلق بي في سماء السعادة السرمدية إن كان قد خرج من فم (إيهاب) ولكن أين هو الآن؟ لابد وأنه يرتب لزفافه الذي تم تأجيله بسبب احتجازي بالمشفى، قطع عليَّ (نادر) حبل أفكاري حينما مد يده يسحب دبوس شعري لينسدل على كتفي قائلًا باستنكار:

- انظري هكذا أفضل، لِمَ دائمًا تقيدين شعرك بهذا الشكل؟ أتحبين أن يتعامل معك أحد بهذه القسوة؟!

حدقت فيه بدهشة وفي يداه التي تشيران بعصبية في كافة الاتجاهات، كمحامي يدافع بشراسة عن موكله فانفجرت ضحكًا، ليقول بابتسامة واسعة وهو يشير بيده نحو دراجتين يقفان على مقربة منا:

- ما رأيك بجولة في المدينة بهما؟

بحماس أجبته:

- هيا.

هممت بالتوجه نحوهما إلا أنه استوقفني قائلًا:

- انتظري أيتها الغشاشة لن تخدعيني مرة أخرى، سننطلق في وقت واحد.

رفعت حاجبيَّ بدهشة:

- أتريد أن نتسابق؟

هز رأسه بحماس:

- سيكون أكثر تشويقًا.

- ولكني لا أعرف المدينة.

وضع يده بجيبه وقال رافعًا أحد حاجبيه:

- إذًا سأعتبر نفسي الفائز.

- ماذا؟ ولكن هذا ليس عدلًا.

- حسنًا، اعتبري أنني أرد لك المرة التي قمتِ بخداعي فيها.

- قلبك أسود.

- محقة تمامًا.

وبحماس شديد انطلقت معه نجوب أرجاء المدينة، وكان (نادر) يسبقني حينًا وأسبقه أنا حينًا آخر، كنا إذا دخلنا أحد الأحياء له فيه ذكرى يوقفنا فيه ليقص عليَّ مغامراته ومواقفه المضحكة، ثم ننطلق مرة أخرى، كان يستغل فرص عدم انتباهي له وانشغالي بما تعرضه المحلات فيختفي عن ناظري ليبعث في نفسي الخوف إلى أن أوشك على البكاء وأنا أبحث عنه فيظهر أمامي ويكاد ينفجر ضحكًا حتى يتلون وجهه بلون الدم، فأقدم على الضحك معه بدلًا من البكاء، وقفنا نتناول المثلجات

أمام النيل، وهواؤه المنعش يبعث في جسدي برودة طفيفة تتفتح لها مسامي ويمتلأ صدري بالأكسجين، قلت بصوت مسموع كأنما أحدث نفسي:

- كان (إيهاب) دائمًا يتذمر من كثرة تناولي للمثلجات.

ضحكت بمرارة لأكمل بسخرية:

- العجيب في الأمر أنه كان دائمًا ما يشاركني تناولها رغم اعتراضه.

بغضب قال (نادر) بنبرة قاسية:

- لِمَ تريدين لنفسك العذاب؟

- الأمر ليس بيدي

- لا، بل بيدك لكنكِ تحبين الضعف وتلجئين إليه.

- أرجوك لا تكن قاسيًا، فأنت لا تعرف كيف تكون حين تعشق أحدهم بكل جوارحك، ويكن هو روحك تحيا به ومعه وله، ثم يرحل فجأة ليتركك جسدًا باليًا لا حول له ولا قوة.

بنبرة حملت كثير من الحزن والأسى أيدتها طيف دمعة بعينه قال:

- بل أعرف هذا جيدًا، وأعرف تمامًا كيف يكون الحب، أدرك كيف لشخص آخر أن يسرق قلبك وأنت مسلوب الإرادة لا تمتلك القدرة على استرجاعه، أعرف مرارة أن يتعلق قلبك بأحدهم ولكنه قد وهب قلبه لآخر.

سالت دموع عينيه وبكى بصمت، فزادت غصة قلبي وشعرت بصدق كلماته والوجع الذي يغلفها، دنوت منه أمسح دموعه بكفي بينما كانت دموعي تشق طريقها بغزارة، وبصوت باكي خرج من بين شفتي المرتعشتين:

- هل سبق وأن أحببت؟

شحذ نفسًا عميقًا ونظر أمامه وبمرارة لم أعهدها بصوته أجاب:

- نعم، أحببتها أكثر من أي شيء في هذا العالم.

التفت إليَّ بعينين ممتلئتين بالدموع وأردف:

- أتعلمين؟ لو خُيرت ما بين يوم واحد برفقتها وبين حياة كاملة بدونها، لوقع اختياري على يوم برفقتها دون أدنى تفكير.

دق قلبي بجنون لما لامسته من حب (نادر) بصوته، وزادت كثافة دموعي وسألته سؤال كنت قد أدركت جوابه مسبقًا إلا أني تمنيت لو كان جوابه مخالفًا لتوقعي:

- أتحبك مثلما تحبها؟

بابتسامة مريرة شعرت مرارتها في حلقي:

- تحب آخر.

كاد قلبي ينفطر كمدًا وأنا أرى من كان دومًا يقويني ويشد من أزري بهذا الضعف، أرى من كانت البسمة لا تفارقه شاحب الوجه يعلو ملامحه كم هائل من الحزن، اقتربت منه أربت على كتفه بأسى، وبصوت حاولت إضافة شيء من الحماس إليه قلت:

- غدًا ستحب أخرى، وستحبك أيضًا.

قال كما لو لم يسمع ما قلت:

- ولكن علاقتهما قد باءت بالفشل.

كان كالغريق الذي يتعلق بقشة، فأردت إلقاء وميضًا من الأمل بصدره، فقلت بحماس:

- إذًا صارحها بحبك.

بدا ساهمًا وهو يعلق:

- حتى وإن كانت ما تزال تحبه؟

اضطربت قليلًا ولكن نظرة الرجاء الممزوجة الحزن التي كان يرمقني بها دفعتني لأجيبه بالإيجاب، واندفعت أشجعه بكلمات مقنعة لا أدري إن كنت أقنعه هو أم أقنع نفسي قائلة:

- حبك الشديد لها بالتأكيد سيجعلها تقع بحبك، فلن تجد فتاة من يحبها بهذا القدر من الإخلاص والصدق، بالإضافة لـ.....

قاطعني فجأة قائلًا وعيناه مثبتتين على عيني لا يرمش له جفن:

- أحبك.

انتفض جسدي كالمحمومة، وبرقت عيناي بغير تصديق، شُل جسدي وانعقد لساني، ورفض عقلي تصديق أن من يتحدث عنها هي أنا! تجمدت عيناي بمحجريهما تبحثان في ملامحه عما يشي بالمزاح، فلم تجدا سوى

نظرة منكسرة وعينان تفيضان بحب جيّاش، تطلب الأمر مني دقائق لأجيب بهمس يكاد يسمع:

- هذا غير صحيح.

بتحدٍ وألم أجاب:

- بل صحيح تمامًا.

الفصل العاشر والأخير

اتسعت عيناي دهشة:

- أتدرك ما تقول؟

- نعم، أقول إني أحبك منذ أول مرة رأيتكِ فيها، ولم تكن هذه المرة بمنزل عمك بل كانت حين جئت إلى الإسكندرية برفقة (إيهاب)، لمحتك من سيارتي بينما كان يترجل منها قادمًا إليك، يومها ارتسمت ابتسامتك الشغوفة بعقلي ورفض طيفك أن يذهب عن مخيلتي، كنت أرى جميع النساء أنتِ، انتابني شعور مميت بتأنيب الضمير لرفض قلبي أن يتوقف عن النبض إلا لكِ، وحين رأيتك للمرة الثانية بمنزل عمك عاد قلبي للنبض مجددًا واستردت روحي الضائعة، فأرجوكِ لا تسلبي روحي مجددًا.

بنظرات حائرة أخذت أحدق بدهشة وعدم تصديق في الماثل أمامي، وعقلي لا يكف عن ضجيج تساؤلاته المتتالية، أهذا هو (نادر) صديقي؟ أكان يحبني كل هذا الوقت؟ لِمَ أخفى عني كل هذا الوقت؟ ولِمَ قرر أن يبوح ليَ الآن؟

اعتملت نيران الفجع بصدى واشتعلت أحزان قلبي بعدما أصبحت على يقين بأنني على وشك فقدان أعز أصدقائي وأقرب شخص إلى قلبي، فلم يعد قلبي يقوى على تحمل المزيد من مرارة الفقد، فصدقًا لقد تلفت

روحي، لِمَ تعاقبني الحياة دائمًا بسلب أقرب الناس إلى قلبي، وكأنها تعاقبني على كل لحظة سعادة شاركتها معهم.
صدقًا يا (نادر) لن أجد رجلًا مثلك، لن أحظى بمن يملك لي كل هذا الكم الهائل من الحب، الذي أصبحت الآن على ثقة أن (إيهاب) لم يُكِن لي يومًا بمثله، اعذرني يا صديقي، فأنا لا أريد أن أخدعك، فمهما حاولت يظل (إيهاب) متربعًا داخل قلبي يأبى الخروج، أما أنت فتستحق من هي أفضل مني، تستحق من تهب لك قلبها وتكرس لك حياتها، وأبدًا لن أتمكن من أن أكون هي.
سحبت نفسًا عميقًا ألملم به شتات نفسي، واستجمعت شجاعتي لأقول بصوت مضطرب متردد وإن كنت حاولت إظهاره بعكس ذلك:
- أنا آسفة أتمنى حقًا أن أبادلك الحب ولكني لن أقدم على أن أداوي حبًا بحب آخر، إضافة إلى أنني لا أراك سوى صديقي المفضل.
****

أجلس بغرفتي أضم ساقي إلى صدري وألقي عليها رأسي في استسلام تاركة العنان لدموعي بالانهمار علّي أجد وسيلة ما لنزع قليلًا مما يموج بصدري من أحزان، وتخفف حدة نيران قلبي التي تزيدها الفراش تحتي أشعر به كالجمرة الملتهبة التي تحرق كل ما يقترب منها، الغرفة حولي مطلية بألوان الكآبة والوحدة، ضاعف غياب (نادر) من ثقل صدري أضعاف أضعاف

ما كان عليه، فقد مر ثلاثة أيام منذ لقاءنا الأخير، لا تغيب عن مخيلتي صورة وجهه وملامحه الصارمة حين قلت له بأنه ليس سوى صديق لي.
كقطعة حجارة صماء لا روح فيها ولا حياة، أجلس مكاني بلا حراك والبيت من حولي يعج بأصوات الحياة، إذ كانت ترتيبات حفل الغد تقوم على قدم وساق، الجميع يجوب المنزل بهمة يشاركون في تزيينه يستعجلون ذلك اليوم ليحتفلوا فيه على حساب قلبي المكلوم، لو كان (نادر) بجواري الآن لما كنت بهذا الضعف، مجرد رؤيته تبعث في نفسي قوة لا أعلم مصدرها، وكانت ابتسامته تُشع في بهجة معاكسة للضيق المقيم بصدري، ولكن أين هو الآن؟! أعلم أنه يعاني مثلي تمامًا وما يزيد قهري أنني السبب في معاناته، يؤلمني أن أكون سببًا في حزن من كان يومًا سببًا في سعادتي وسرًا لابتسامتي.
قطع استرسال أفكاري صوت طرقات خفيفة على الباب، مسحت دموعي وقمت بتثاقل، تُرى أما زال هناك من يتذكر وجودي بهذا المنزل؟
انسحبت أنفاسي لوهلة ودق قلبي بجنون حتى كاد يخرج من بين ضلوعه، واتسعت عيني بدهشة حين أبصرته يقف أمامي بغمازة على خده زادت من وسامته، انقلب حزني كله سعادة دفعة واحدة، كما لو لم يكن للحزن وجود من الأساس، فاندفعت نحوه أضمه بشدة كطفل ضائع وجد والديه بعد عناء بحث دام كثيرًا، وبفرحة عارمة أخذت أردد وأنا أمسح على شعره:

- لقد افتقدك كثيرًا.

أبعدني عنه برفق ليمسك وجهي بين كفيه ويقول وأنا أنظر لغمازته باشتياق:

- آسف لأنني ابتعدت عنكِ في هذا الوقت.

هززت رأسي بعنف:

- أرجوك لا تعتذر فأنا من يتوجب عليها شكرك لوجودك الآن.

ابتسم قلبي وراح يرقص بين ضلوعه حين أبصرته يغمز لي قائلًا:

- لا يتوجب على صديق أن يشكر صديقه، أليس كذلك؟!

أومأت رأسي بامتنان ولم أنبس ببنت شفة، ليقول بحماس مفاجئ كنت في غاية الاشتياق إليه:

- إذًا هل أحضرتِ ما سترتدينه في عرس الغد؟

ببلاهة أجبته:

- لا.

أدار جسدي لأواجه الغرفة فدفعني بخفة قائلًا.

- حسنًا ارتدي ملابسك وأنا بانتظارك في الأسفل سنذهب سويًا.

أغلقت الباب خلفي، وعلى ثغري ابتسامة واسعة، وبداخلي سعادة عارمة جعلتني أقفز بمكاني جزلًا فها هو (نادر) قد عاد مجددًا، لطالما أدركت أن صديقًا رائعًا مثله لن يتخلى عني مهما حدث، ارتديت ملابسي بحماس تعجبت له؛ فمن يصدق أن التي تقف أمام المرآة الآن وتمشط شعرها

تستعد للذهاب كي تبتاع ما ترتديه في زفاف حبيبها، هلا أخبرتني يا (نادر) ما هي وصفتك السحرية التي تتعبها كي تنشر البهجة أينما ذهبت؟

****

لِمَ الأسود؟! سألني (نادر) عندما طلبت رأيه في فستان نال إعجابي، فأجبت وأنا أهز كتفاي:

- لا لشيء فقط أعجبني الفستان.

مط شفتيه باستياء واضح وبدا أنه لم ينل إعجابه، فاختفى من أمامي للحظات، ثم أتي حاملًا معه فستان آخر وألقاه لي بغير اكتراث حتى كاد يقع من يدي قبل أن أستطيع التقاطه، وقام بدفعي قائلًا:

- ارتدي هذا أريد رؤيته عليكِ، هيا لا تكوني بطيئة هكذا.

دلفت إلى غرفة تبديل الملابس وأنا أغالب الضحك من تصرفاته الصبيانية، وبعد لحظات خرجت مرتدية ما انتقاه لي، رأيت بعينيه نظرة إعجاب لم يكن من العسير تميزها، ابتسمت بخجل حين لم أجد منه تعليقًا، تنحنحت قائلة:

- ألم يعجبك؟؟

هز رأسه بسرعة نافيًا:

- لا لا فقط لم أتوقع أن يكون رائعًا هكذا.

استبد بي الخجل وشعرت بالدماء تنفجر على وجنتاي، فأسرعت إلى غرفة تبديل الملابس دون أن أعلق بكلمة.

كان الوقت متأخرًا حين عدت إلى المنزل، فلم أجد أحدًا مستيقظًا ولكن هكذا ظننت، فما إن هممت بصعود الدرج حتى أتى لي صوت (إيهاب) من خلفي قائلًا بحدة:

- ماذا كنتِ تفعلين بصحبة (نادر)؟

تسمرت مكاني وقد تملكني شعور تام بالسخط، فأجبت بحدة دون أن ألتفت:

- كنت أبتاع ما سأرتديه غدًا في حفل زفافك.

قلت جملتي وأنا أشدد على حروف الكلمة الأخيرة أذكره بأنني هي من يجب أن تلقي الأسئلة لتلوم وتعاتب وليس هو، هممت بالصعود ولكنه جذبني من ذراعي كي أقف أمامه، وبغضب حاول كتمه قال:

- لِمَ تلعبين معي؟ ألم أحذرك وطلبت منك الابتعاد عنه؟

زاد حنقي حتى بلغ أقصاه، وشعرت بالدماء تغلي برأسي، رمقته بكره وقلت بسخط لم أظن يومًا بأنني قد أشعر به تجاهه:

- أتعرف أمرًا؟ لا يوجد أحد في هذا الكون بمثل أنانيتك.

تركته وصعدت الدرج بخطوات واسعة أود الهرب من أمامه، فأتاني صوته متوعدًا.

- لم تتركي لي خيار آخر إذًا، سأفعل ما بوسعي لأجعله يندم على يوم أحبكِ فيه.

تسمرت مكاني في منتصف الدرج، ومزيج من المشاعر الخوف، والحيرة، والدهشة كانت تمتزج بصدري، فنبرة صوته كانت قاسية ألقت بنفسي الخوف، واستبدت بي الحيرة فـ(إيهاب) الذي أحببت لن يقدم على فعل ما يؤذي غيره، وأدهشني معرفته بحب (نادر) لي، أكان يعلم مسبقًا؟ أم أنه توقع هذا فحسب؟

نفضت عن رأسي الأسئلة التي تهاجمه، وتوجهت إلى غرفتي تاركة (إيهاب) وتهديده ورائي وقد عزمت إلا التفت إليه مرة أخرى.

****

اليوم حفل زفاف (إيهاب) ولم أكن أنا العروسة، أضحك بشدة حتى تدمع عيناي، فمن كان يصدق أن يأتي يوم أتزين فيه كي أحضر زفاف من قضيت الأيام والليالي أخطط لمستقبلي معه، أتذكر كيف كنا نرتب سويًا تفاصيل معيشتنا معًا حتى أسماء أطفالنا كنا نتشاجر لأجلها فأضحك حد البكاء، أضحك سخرية من قدري؟ أم سخرية مما تخبئه لنا الأيام؟ لا أعرف.

أبكي حظي وأندب قلبي الذي حُكِمَ عليه بالإعدام قهرًا، أمد يدي لأكفكف أدمعي وأزيل معها ما أبقاه (إيهاب) في جعبتي من ألم حبه، نهضت أرتدي ثوبي وقد عزمت على نسيانه إلى الأبد، فلم يعد هناك ولو بصيصًا من الأمل كي نكون معًا، إن كان قد أختار أخرى وفضل العيش معها فليكن، فكما كنت مخلصة لحبه إلى آخر رمق سأنتزعه من قلبي

انتزاعًا، لن أحزن، لن أتألم، لن أبكي فقط سأقنع عقلي بأنه لم يستحق حبي له يومًا، ولن يستحق مزيدًا من الحزن لأجله، سأتتبع الفرح وأراقبه أينما كان وسأتمسك بتلابيبه حين أصادفه فلا يفر مني، وها أنا ذي أتخذ من حفل زفافه سببًا يلقي إليَّ قلبي شيئًا من الفرح، أَوَ ليس حضوري هذا الزفاف يعد قوه ما بعدها قوة؟! إذًا لِمَ لا أحتفل بقوتي هذه وأسعد بها وأتخذ هذا اليوم بداية جديدة لحياة أخرى، حياة بدون عذاب، بدون ألم، بدون حزن، بدون (إيهاب).

وقفت أتطلع لنفسي بالمرآة بعين رضا، فقد حرصت أن أطل اليوم بطلة مميزة تبهر العيون، زاد الفستان الذي أظهر رشاقة جسدي من رضاي إذ أضاف لونه الزهري مزيدًا من التألق، كان مصنوعًا من "الدانتال" بلا أكمام ينتهي بشيء من الوسع عن حدود ركبتي، أضاف له عقد من الفضة زينت به رقبتي مزيدًا من الجمال، مررت على عيني بقليل من الكحل أظهر سحبتها الخفيفة، ووضعت بعضًا من الحمرة زادت من اكتناز شفتيَّ وأخيرًا تركت لشعري العنان كي ينسدل بحرية فوق كتفايَ، تصاعد رنين هاتفي فالتقطته وأنا أنزل على ركبتي أبحث عن الحذاء أسفل السرير وأجبت في حين كانت يدايَ تمتد تبحث عنه: مرحبًا

أتى صوت (نادر) صائحًا:

- لقد تأخرتِ كثيرًا، ماذا تفعلين كل هذا الوقت؟

أجبت وأنا التقط فردة الحذاء الثانية:

- لقد انتهيت سآتي حالًا.

أغلقت الهاتف وشرعت أرتدي فردتيّ الحذاء بعجل وهرولت مسرعة نحو الباب ولكني عدت ثانية قبل أن أخرج لأضع بعضًا من العطر

بأنفاس مضطربة وقدمين مرتعدين هبطت الدرج بتوجس حين وجدت العديد من الأعين تتوجه نحوي، بحثت بنظرات حائرة عن (نادر) بين ذلك الحشد ولكني لم أجده، إلى أن انتشلتني (ندى) من الضياع الذي كنت أغرق به وابتسمت لها جزلًا وهي تمتدح مظهري، قالت وهي ترفع صوتهًا كي يتسنى لي سماعه فلا تطغى عليه الموسيقى:

- ما رأيك أن أعرفكِ على صديقاتي؟

منعني من الإجابة صوت (نادر) الذي أتى من خلفي، التفت إليه وهو يقول لـ(ندى):

- لا عزيزتي لن تأخذيها إلى أي مكان.

ابتسمت براحة حين رأيته، واتسعت ابتسامتي حينما غمز قائلًا:

- أنا من سيكون رفيقها اليوم، لذا لا تلقين لها بإلاودعيها وشأنها فحسب.

قالت (ندى) وهي ترد لـ(نادر) غمازته:

- حسنًا سأدعها لك.

التفتُ إلى (نادر) عندما غادرت (ندى)، فتساءل بتعجب:

- ما هذا الذى تفعلينه؟

- ماذا؟

تسحرين عقول الرجال بجمالك المفرط هذا

ابتسمت بخجل وتطاير قلبي طربًا لمدحه، لأجده فجأة يسحبني من يدى ليجلسني على مقعد أمام بيانو وضع على يسار العمود الذي يزين الصالة من منتصفها، وتحت نظراتي المندهشة وقف (نادر) على الدرجة الثالثة من السلم يصفق بيده بعد أن أشار للموسيقى بأن تتوقف، فانتبهت له جميع الأنظار وهدأت الأصوات واشرأبت الأعناق ترهف السمع لما سيقوله، فتقلصت معدتي حين أشار نحوى بيده قائلًا:

- أقدم لكم يا سادة (ملك) عازفة البيانو، ستمتع أسماعكم اليوم بمعزوفة رائعة.

انسحبت أنفاسي حين صُوِّبَت جميع الأنظار نحوي تنتظر ما سأعزفه، وأنا أحدق بـ(نادر) ألعنه بداخلي على هذا الموقف الذي وضعني فيه. استجمعت شجاعتي من نظرته المحفزة، فالتفت إلى البيانو وبأصابع مرتعدة ونفس متوجسة بدأت في العزف حتى اندمجت بحواسي مع الموسيقى ولم أنتبه لمن حولي، تذكرت قول (نادر) لي :

" الموسيقى دائمًا ما تنقلني لعالم آخر بعيدًا عن نفاق البشر."

تابع صوت الموسيقى صوت تصفيق حاد جعلني أشعر وكأنني ملكة هذا الحفل، ابتسمت بجزل أشكر (نادر) بداخلي لما جعلني أشعر به دون قصد، بحثت عنه بعيني على الدرج ولكنه فاجأني من الخلف قائلًا بمرح:

- أنا فخور بكِ.

- هل عزفت جيدًا؟

- أجل، ولكن ليس هذا السبب.

- ماذا إذًا؟

- لأنك أخيرًا قررتِ وبصدق محو (إيهاب) من قلبكِ.

- ولكن سبق وأن قررت هذا، ما الجديد إذًا.

- الجديد هو هذا - أشار بيده نحو عيني - ذلك البريق اللامع بعينيك، بريق الإرادة الذي لم أره من قبل، فدائمًا ما رأيت لمعة حزن وضعف تسكن بين جفنيكِ تأبى الرحيل.

يجب أن أعترف أن الفضل لك. -

- وأنا يجب أن أعترف أني في غاية السعادة لهذا، هل أخبركِ سرا؟

- ماذا؟

- لم أفقد الأمل بعد وسأجعلك تقعين في حبي يومًا ما.

- هل أخبرك أمرًا؟

- ماذا؟

- أنا على يقين بأنك ستفلح في هذا-

اتسعت ابتسامته على آخرها فزادت من عمق غمازته، وبرقت عيناه بفرح وكادت ملامحه تقفز طربًا، همّ بالحديث ولكن قطعه صوت جلبة قادمة من ورائي فتعلقت عينه خلفي بينما استدرت أرى ما يحدث، فانفرج فمي دهشة حين أبصرت رجال شرطة يقتحمون المنزل بعنف، فأغلقت

الموسيقى وخفت الأصوات واضطربت الأنفاس، أصابني الهلع وسقط قلبي بين قدميَّ حين سمعت أحدهم يسأل:

- أين (نادر مجاهد)؟

تسمرت مكاني وانسحب الدم من عروقي وتيبست أطرافي حين تقدم (نادر) نحوه يقدم له نفسه، تحركت عيني بجنون أبحث عن (إيهاب) فغاص قلبي بين أضلعي حين وجدته ينظر إليَّ بتشفي، فدارت الأرض أسفل مني وكدت أسقط أرضًا لكني تمالكت حين أبصرتهم يأخذونه معهم، اندفعت نحوهم لأخلصه من بين براثنهم ولكن عمي كان لي بالمرصاد، انقطعت أنفاسي وأنا أصرخ باسمه حتى ذهب معهم وذهب معه صوتي، توقفت فجأة عن صراخي واندفعت كالمحمومة باتجاه والد (نادر) حين أبصرته يخرج من المنزل ودلفت دون أن أنتظر إذنًا إلى جواره بسيارته، وانطلق يسبق الريح ويصرخ بهاتفه يطلب من المحامي اللحاق به.

بعقل مجهد وجسد واهن استندت بظهري إلى الحائط خلفي ونظري مثبت على باب الغرفة التي يستجوبون (نادر) بها، يكاد قلبي يتمزق ويشتعل عندما أتساءلت إن كان (إيهاب) هو من فعل به هذا؟ ويرن السؤال صداه بأذني، فأحرك رأسي بعنف أخرج هذا الصوت منه، رأيت رجلًا لم أستطع أن أتبين ملامحه من غلالة الدموع التي تغطي مقلتايَ يقترب مني يتحدث بكلمات بدت لي مبهمة، لم يستطع عقلي تمييزها،

فاقترب مني يهز كتفي بعنف صراخًا باسمي، فاستدعيت حواسي وانتبه ذهني، لأرى هذا المتطفل الذي لم يكن سوى المحامي (منصور)، فألقي بنفسي الأمل وألقيت بنفسي داخل صدره أشهق بحدة تاركة العنان لدموعي، أخذ يربت على ظهري ويهدئ من روعي وكعادته بث داخلي بعضًا من القوة التي أحتاجها قبل أن ينضم لـ(نادر) داخل الغرفة.

ألقيت نفسي بجوار والد (نادر) الذي كان بارعًا في إخفاء توتره من ملامحه إلا أن هزة قدمه كشفت عنه، أغمضت جفنايَ بشدة عسى تلك الأفكار المزعجة التي تتفاقم داخل رأسي تحل عنه، فكفاني هذا القلب الذي ينفطر كمدًا، مر وقت لا أعرف مقداره، ما أعرفه هو أنني اتلفت الكثير من خلايا عقلي، وعدد لا بأس به من أعصابي قد ماتت وتم دفنها بسلام، أما أطرافي فقد سرى بها خدر الألم حتى أسكنها تمامًا فلم أعد قادرة على إبداء أدنى حركة، هل أصبت بالشلل أم ماذا؟ لا أعلم ولا يهمني إن أصبت به أم لا، فكل ما يشغل تفكيري الآن هو (نادر).

أجفلت حين أبصرت (إيهاب) قادمًا من آخر الممر بخطوات واسعة، أخذت أفتح عيني وأغلقها عدة مرات لأتأكد أن من أراه هو (إيهاب) حقًا ولا يخيل لي، التفت إلى والد (نادر) لأجده يضع رأسه بين يده مطرقًا، وكالمحمومة نظرت مرة أخرى باتجاه (نادر) الذي اقترب أكثر حتى ظهرت ملامحه فانقبض قلبي حين برقت عينيه بتشفي، وانبثقت عن شفتيه ابتسامة لاذعة أكدت شكوكي وإن كنت ما زلت أكذبها وأمني نفسي بأن ما

يحدث مع (نادر) لا دخل لـ(إيهاب) به، اندفعت كالممسوسة حين أبصرته يدلف إلى غرفة كتب اسمه على بابها، حاول الحارس منعي ولكن (إيهاب) استوقفه وطلب منه السماح لي بالدخول، بخطوات متوجسة دلفت وأنا أحاول رسم البرود على وجهي بعكس النيران المتأججة بصدري، زاد حنقي وتصاعدت الدماء إلى رأسي وأنا أرى (إيهاب) يجلس على مقعده وراء المكتب رافعًا قدمه عليه، ينظر إليّ بفرحة لم يتكبد عناء إخفائها بل أظنه تعمد هذا، وإلا لِمَ أتى لمحل عمله في يوم زفافه؟

صحت بغضب بالغ لم أستطع إخفاؤه:

- أنت من فعلت هذا بـ(نادر)، أليس كذلك؟

أزاح قدمه من فوق مكتبه واعتدل بجلسته قائلًا بنبرة حادة:

- بل أنت من فعلت به هكذا حينما لم تخضعي لما أطلبه منكِ.

- صرخت بهلع في وجهه:

- هل أصابك الجنون؟ أتزج به في السجن فقط لأنني لا أريد الابتعاد عنه؟

قام من مكانه ببرود والتفت حول مكتبه يخرج مسدسًا من جيبه الخلفي يلقيه فوقه، ويتقدم ليصبح أمامي مباشرة وعينه لا تبرح عينايَ، فيقول بصوت أثار في نفسي الخوف:

- بل لأنه أحب شيئًا بين يدي.

هززت رأسي لا أفهم ما يقصده وقلت بتلعثم:

- لا، لا يحق لك حبك لي بأن تزجه بالسجن.

اتسعت عينايَ على آخرهما حينما أبصرته يضحك بشدة كما لو كنت ألقيت على مسامعه طرافة أعجبته، فقال وهو يغالب الضحك:

- لِمَ لا تفهمين عزيزتي؟ أنا أنتقم منه فقط لكونه أراد شيء أمتلكه وليس لأنني أحبك.

بصدمة سألته:

- ماذا تقصد؟ أتعني بقولك هذا أنك لا تحبني؟

بابتسامة ماكرة:

- لا أنكر أنني أحببتك وقت ما، وأعجبني حبك لي وراقت لي تصرفاتك العاطفية كثيرًا، ولكني لم أفكر يومًا أن تكوني زوجة لي.

هززت رأسي بعدم تصديق:

- لابد وأنك تكذب، فإن كنت لا تحبني لِمَ تقربت مني إذًا؟ لِمَ أظهرت لي الحب؟

بلا مبالاة أضرمت النار بقلبي:

- لأكسب ثقة والدك وأتقرب منه.

- ماذا؟

تراجع بابتسامة خبيثة وجلس على الكرسي أمامي:

- أردت أن أتقرب منه إلى الحد الذي يجعلني أوقعه بقضية مخدرات بأسهل السبل.

- وما الذي يدفعك إلى هذا؟

- لا أخفي عليكِ لقد كان لوالدك منافسون كُثر طلبوا مني هذا مقابل عائد مادي يستحق المخاطرة حقًا.

- لا لا أنت لا تفعل هذا، أنت فقط تخبرني بهذا كي تجعلني أكرهك فلا أتعذب ببعدك عني، أليس كذلك؟

ضحك بشدة، وقال وهو ما زال يغالب الضحك:

- لا يهم معي إن كنتِ تكرهيني أم لا، صدقيني حبيبتي فالأمر سيان لدي.

صحت بولع أكاد أكذب ما يقوله ويأبى عقلي التصديق:

- إن كان كذلك فلِم حرصت على إخباري بنفسك بأمر القضية؟ ولِم أتيت لي بالمشفى بعد وفاة أبي وبقيت بجواري إلى أن أفقت من غيبوبتي؟ ولِمَ أتيت لي في غرفتي تطلب مني أن أسامحك؟ أخبرني لِمَ؟

- اتسعت ابتسامته اللاذعة وبدا كحية عملاقة:

- حسنًا سأخبرك، أما الأمر الأول فأردت أن أستمتع قليلًا حين أرى ردة فعلكِ الدرامية، فأنا أعشق الدراما كما تعلمين، وبالنسبة للمشفى فأنا لم آتي إليكِ بل كانت كذبة صغيرة انطلقت عليك، وأتيت إلى غرفتك فضولًا ليس أكثر حين علمت أنكِ قد أصابك المرض بسببي.

راق لي هذا الأمر كثيرًا.

- أكل هذا كان خدعه؟

- ما رأيك؟ ألست ممثلًا بارعًا؟

- أقتل والدي بسببك؟

- لا، لا عزيزتي، ضعي الأمور بموضعها لا أنكر أن والدك كان قد زج بالسجن بسببي، ولكن قدره أن يموت قبل ذلك.

- ولكن المحامي أخبرني بأنه حقًا تاجر مخدرات.

- منصور! يا عزيزتي من أين لكِ بكل هذا الذكاء، منصور يعمل لصالحي، وأنا من دفعت به دفعًا ليترافع عن والدك، فأضمن أنني قد كسبت القضية.

تتعلق نظراتي الحائرة بوجهه المقزز، ابتسامة عريضة تعلو وجهه زادت من نفوري، ينتفض جسدي بلوعة، تنهمر دموعي ولكنها أضلت طريقها فأخذت تنسكب بأعماقي بحرارة، فتذيب كل ما تقابله لتترك جوفي خاليًا، رأسي ينبض ألمًا، عقلي يصاب بهستيرية من الجنون، ضحكات (إيهاب) اللاذعة يتكرر صداها في أذنايَ، فيزداد ألم رأسي حد الاختناق، صوت (نادر) الحاني يأتيني من بعيد مطمئنًا، أضع يدي على أذني، فيعلو صوته ويزيد الألم أضعاف، أصرخ به ليصمت، فتنتشلني ضحكات (إيهاب) المدوية، فيتردد صداها مفزعًا بداخلي، لأنتصب كجماد دون أيه تعابير، أتأمل ملامحه المقرفة التي كانت يومًا أحب شيء إلى قلبي، فتتجلى صورة والدي الملقى بالمشفى أمام ناظري، يعم الصمت ويطبق على الغرفة إلا من أزيز الجهاز المتصل بجسد أبي يعلن خروج الروح منه، تدور الغرفة من حولي، يتحول وجه (إيهاب) المبتسم لحية عملاقه تثير اشمئزازي،

الأزيز يعلو، أضع يدي على أذني بعصبية، (نادر) يتطلع لي من وراء القضبان، ما زالت الغرفة تدور، أبي مسجى على الفراش، (إيهاب) تحول لحية عملاقة، صوت الأزيز يعلو، الألم يتفاقم، ما زالت الغرفة تدور، الحية تضحك بتشفي، أبي يفارق الحياة أمام عيني، الأرض تميد بي، قوايَ تخور، انتفضتُ فجأة والتفت بلوعة إلى حيث جاء صوت أبي من خلف المكتب فأجده فراغًا، تقع عيني على مسدس (إيهاب)، فتنتفض نظارتي نحوه، وتشعل ضحكاته نيران البغض داخلي، فأنقض عليه بضراوة وأتابع جسد الحية وهي تسقط أمامي بعدما أصدر المسدس بيدي المرتعدة صوتًا مدويًا أصابني بالصمم، وارتجف بدني ورحلت عنه ما بقى من قواي فانسلّ المسدس من بين أصابعي الواهية ليستقر بجوار قدم (إيهاب) الملقى فوق بركة واسعة من الدماء أخذت في الاتساع، انفتح الباب بحدة ليندفع من ورائه عشرات من الأوجه المفزوعة، باستثناء وجه واحد نظر لي ضاحكًا فضحك قلبي وعادت لي الحياة وانبثق داخلي أمان كان مصدره عينيه العميقتين وما تحملانه من دفء ليل زنجي، فاندفعت نحوه ألقي بنفسي بين ذراعيه، وأضيع في عالم صدره المؤنس أستشعر الأمان بلمساته، تنفرج شفتاي ببطئ ليخرج صوتي مجهدًا بعد صراع مع حبالي الصوتية:

- فلتبتسم الآن يا أبي وتضحك ملئ شدقيك فقد انتقمت لكلينا، قتلت من سلب منك الحياة وسلب مني قلبي.

بعد مرور خمسة أعوام.....

(ملك) هلا بقيتي ساكنة أرجوكِ، الحركة خطر عليكِ يجب أن ترتاحي.

ضحكت بجزل وأنا أشاهد نظراته القلقة، قلت بينما أقترب منه وأمسح على وجهه الذي يجعل قلبي يُنبت ورودًا:

- (نادر) حبيبي أنا ما زلت في الشهر الثالث، لا يوجد شيء من هذا فالحركة بركة.

ندّت عني شهقة خفيفة عندما حملني بغتة كمن يحمل عصفورًا بين يديه، وبحنان يكفي العالم وضعني برفق فوق الفراش، كنت أتأمل ملامحه التي أصبحت لجسدي الروح، ولقلبي نبضه:

- ستظلين بالفراش طوال اليوم هذا عقاب لكِ.

- قبّل خديّ قبل أن يستأنف حديثه:

- سأُعد أفخم فطور لزوجتي الغالية، ولابننا المشاكس كأبيه.

فلتت مني ضحكة وهو يزيل جملته بغمزته التي أصبحت لي كالإدمان، اختفى من أمامي بلمح البصر، تنهدت بعمق وأنا أسترجع أحداث أصبحت في الماضي، نبض قلبي بالحب وأنا أتذكر وقوف (نادر) جواري بالمصحة النفسية بعد خروجه من السجن، تذكرت محاولاته المستميتة كي أتقبل صدمتي، وأصبح أقوى من ذي قبل، ابتسم قلبي قبل أن تظهر البسمة على شفتيّ وأنا أتذكر حين خرجت من المصحة وقلت له بكل صدق المحبين أنني أحبه، لن أنسى أبدًا ردة فعله حين قفز في الهواء، ثم حملني

بين ذراعيه يركض في كل اتجاه كالمجنون، محظوظة أنا به، محظوظة هي من تجد حبًا حقيقيًا كهذا.

- أجمل فطور لأجمل (ملك).

وضع صينية الطعام أمامي وما لبث أن بدأ بحشر اللقيمات داخل فمي، حاولت جاهدة منعه وبصوت متحشرج قلت:

- (نادر) أود إخبارك أمرًا ما.

نظر إليَّ باهتمام كبير:

- قولي حبيبتي، كلي آذان صاغية.

كدت أتحدث لكنه استوقفني بغمزة:

- وطفلنا أيضًا كله آذان صاغية.

ابتسمت له وقلت:

- لقت رأيت (إيهاب) أمس وأنا عائدة من معرض اللوحات.

اعتدل بجلسته وضمني إليه متسائلًا:

- هل تعرض لكِ بأي شكل؟ هل أذاكِ؟ أخبريني ماذا قال لكِ؟

سحبت نفسي من أحضانه وأجبت بحزن:

- لم يقل شيئًا يا (نادر) ولكن الغريب بعد كل هذا أنني شعرت بالحزن حين رأيت مشيته العرجاء إثر إصابة قدمه.

وضع (نادر) خصلة هاربة من شعري خلف أذني بحنان ونظر لعيني نظرة تكفي كي تُطمئن قلبي:

- وهل تشعرين بالذنب لأنكِ السبب في مشيته تلك؟

أومأت برأسي وعلقت:

- وسبب في فقده لوظيفته ولزوجته، فلا تنسى أنها قد تخلت عنه لما حلّ به.

التقط (نادر) يدي وقبلها بحنان مسّ قلبي، وبصوته العذب الذي أصبح موسيقى لروحي:

- (ملك) حبيبتي لقد كان رد فعل منكِ في حالة لا واعية حين أطلقتِ عليه النار، ثم وإن كنتِ بوعيك من الأساس، كيف ما زلتِ تشعرين بالأسى تجاهه بعد كل ما فعله بوالدكِ؟

هممت بالحديث إذ أثارت سيرة والدي أشجان قلبي لكنه استوقفني وأكمل:

- أما بالنسبة لـ(سارة) فأظن أنها لو كانت أحبته حقًا لظلت جواره ألست محقًا؟!

أومأت برأسي دون أن أجيب ولكن قلبي قد سكن لحديثه، فأكمل بابتسامة قيدت عقلي:

- أنتِ طيبة القلب جدًا يا (ملك).

ابتسمت له، فأكمل:

- أو مغفلة لا أدري حقًا.

ارتفع حابيّ دهشة والتقطت الوسادة جواري وألقيتها عليه، ولكنه تلقاها ضاحكًا ملء شدقيه وبرغم ملامحي العابسة إلا أن قلبي كان يضحك مع صوت ضحكاته، انتهى من نوبة ضحكه وقال:

- حسنًا لا تحزني أمزح معكِ..

قال جملته وهو يداعب خديّ كأنما يمزح مع طفل صغير، هنا فقدت السيطرة على نفسي وضحكت من أعماقي، نظرت إليه وأنا أمسح دموعي التي دائمًا تظهر جراء ضحكي معه، وتساءلت داخلي لِمَ لم أقابل (نادر) قبل (إيهاب)؟ بل كيف كان قلبي أعمى إلى هذا الحد وأحب (إيهاب)؟

شعرت بالأسى من نفسي إذ كنت بوهم كبير ولحسن حظي أصبح (نادر) من نصيبي، خرج صوتي هامسًا محملًا بالمشاعر:

- أحبك (نادر).

ابتسم برقة وجذبني لحضنه فسرى بجسدي دفئ روحه الجميلة، وبنبرة جعلت قلبي يهتز:

- أحبكِ أكثر (ملك).

لمزيد من أعمال المؤلف يرجي التواصل علي :

Wattpad

لمزيد من الروايات يرجى زيارة موقعنا :

site	facebook